



دَرَاَسَاتُ عَرَبِيَّةٍ وَإِسْلَامِيَّةٍ

دورية علمية محكمة

يوليو ٢٠١١م

العدد الخامس (٥)

دراسات عربية وإسلامية

الثقافة الإسلامية في عصر العولمة

دكتور

ياسر محمد عبد اللطيف

كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أرسله ربه رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

وبعد

فإن رسالة الإسلام الخالدة قدمت للعالم الشخصية المسلمة ذات المعالم الواضحة ، تلك الشخصية التي غيرت مجرى الحياة، لأنها تتسجم مع نوااميس الكون، فهي تبنى وتعمر، توازن بين الروح والمادة، تحترم العقل وتقدر العلم، وتراعي مصالح الفرد ومطالب الأمة.

إن هذه الشخصية تضبط حركاتها، وتوجه سلوكها ثقافة إسلامية عريقة، تستمد مناهجها من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. وقد عاش العالم الإسلامي في ظل هذه الثقافة ردحاً من الزمان، موجهاً للحركة الفكرية، رائداً للتطوير، قائداً للتعمر، وصدر المسلمون - آنئذ - للناس أعظم حضارة عرفتها البشرية، وشهد بذلك القاصي والداني، ولا زالت آثار تلك الحضارة - حتى اليوم - تضرب في أعماق التاريخ.

وقد أدرك الغرب إن سر تقدم المسلمين، استمساكهم بدينهم، واعتزازهم بثقافتهم، فعمدوا إلى تشويه تلك الثقافة، وفصل المسلمين عنها بكل السبل، فلجأ قصار النظر، وضعاف النفوس إلى استيراد القيم والمبادئ من الثقافات الغربية.

واليوم تعتمد قوى البغي إلى نشر العولمة، والتأصيل لها، وكأنها قدر محتوم، وليس الهدف من ذلك سيطرة القطب الأوحـد فحسب، إنما تهدف - أيضاً - إلى انفصال المسلمين - كلية - عن ثقافتهم، وقبول القيم الوافدة. وإن ثقافتنا الإسلامية تخبو وتظهر بقدر اعتصام المسلمين بها، لكنها لا تغنى لأن مصدرها الأول وحى السماء، وقد جاءت هذه الدراسة، وعنوانها " الثقافة الإسلامية في عصر العولمة " لتكشف عن سمات الثقافة الإسلامية، وتظهر

أنها تلتقي مع كل الثقافات في إطار من التعاون لنشر القيم الإنسانية العليا، مع الاحتفاظ بأصولها الراسخة.

واقتضت طبيعة الدراسة أن تشمل بعد المقدمة ما يلي:

- التعريف بالثقافة الإسلامية وأهم أهدافها.
- المبحث الأول: مصادر الثقافة الإسلامية.
- المبحث الثاني: سمات الثقافة الإسلامية.
- المبحث الثالث: أهم التحديات التي تواجه الثقافة الإسلامية.
- المبحث الرابع: دور الثقافة في التقريب بين الشعوب.
- والخاتمة وفيها أهم نتائج البحث.

والله - تعالى - أسأل أن يجعل هذا خالصاً لوجهه الكريم

د/ ياسر محمد عبد اللطيف

كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

التمهيد

التعريف بالثقافة الإسلامية وأهم أهدافها

شاع استعمال مصطلح " الثقافة " في مجالات متنوعة ، وانتشر على ألسنة الأدباء والمفكرين ، واختلط هذا المصطلح بغيره من المصطلحات ، ومن ثمَّ فلا بد من تحديد واضح لمفهوم الثقافة بوجه عام ، و عرض لمفهوم الثقافة الإسلامية بوجه خاص .

أولاً : تعريف الثقافة في اللغة :

تأتي كلمة " ثقّف " في لغة العرب بمعنى الحذق والفهم والذكاء ، وسرعة التعلم والضبط والظفر بالشيء والتغلب عليه .

يقول ابن منظور : (ثقّف الشيء ثقفاً وثقافاً وثقوفَةً : حذقه ، ورجل ثقّف : حاذق فاهم ورجل ثقّف لقف إذا كان ضابطاً لما يحويه قائماً به ، وثقّف الشيء يعني سرعة تعلمه ، وثقّفته إذا ظفرت به ، قال تعالى " فَإِمَّا تَثَقَّفْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ " (١)

وفي المعجم الوسيط : (" ثقّف " الشيء : أقام المعوج منه وسواه ، و " ثقّف " الإنسان وأدبه وهذبه وعلمه ، " والثقافة " : العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها) (٢).

فالثقافة على ما سبق تعني الفهم وإدراك الشيء والظفر به ، وتحذيقه حسياً كتحذيق الرماح أي تسويتها وتقويم اعوجاجها ، ومعنوياً كتثقيف العقل ، ثم استعمل لفظ الثقافة للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات .

(١) لسان العرب ٤٩٢/١ ط . دار المعارف والآية (٥٧) من سورة الأنفال .

(٢) المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية ١٠٢/١ ط . وزارة التربية والتعليم بمصر الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

ثانياً : تعريف الثقافة في الاصطلاح :

تباينت آراء الباحثين في تحديد مفهوم الثقافة في الاصطلاح ؛ فمنهم من قصر مفهوم الثقافة على الجانب المادي ، ومنهم من ركّز على الجانب المعنوي ، بيد أن آخرين قالوا بأن الثقافة تعني الرقي المادي والمعنوي.

يرى الأستاذ أنور الجندي أن الثقافة : " ذخيرة مشتركة لأمة من الأمم تجمعت لها وانتقلت من جيل إلى جيل خلال تاريخ طويل ، وتغلب عليها بوجه عام عقيدة دينية هي جزء من تلك الذخيرة المشتركة من الأفكار والمشاعر واللغة ."^(١) ويقف أحد الباحثين بالثقافة عند الجانب النظري فيبين أنها تعني : "الرقي في الأفكار النظرية ، وذلك يشمل الرقي في القانون والسياسة والإحاطة بقضايا التاريخ المهمة ، وكذلك الرقي في الأخلاق أو السلوك وأمثال ذلك من الاتجاهات النظرية".^(٢)

ويرى بعض المفكرين أن الثقافة تعني : " ما يكتسبه الإنسان من ضروب المعرفة النظرية والخبرة العلمية التي تحدد طريقته في التفكير ، ومواقفه في مختلف طرق الحياة من أي جهة حصلت تلك المعرفة وتلك الخبرة سواء كانت من البيئة والمحيط والمدرسة والمهنة أم من طرق أخرى غيرها"^(٣) ، وهذا تعريف عام يشمل الجانبين المادي والمعنوي، وعندما تضاف كلمة ثقافة إلى أمة فإنها تعني : " تراث تلك الأمة الحضاري والفكري في جميع جوانبه النظرية والعلمية الذي تمتاز به الأمة ، وهذا التراث الذي يشكل ثقافة الأمة متداخل مترابط يشكل إطاراً ومحيطاً يحكم الأفراد والأسر والمجتمع في كل أمة ."^(٤)

^(١) معلمة الإسلام : أنور الجندي ٣٠٨/١ دار الصحوه الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ .

^(٢) أضواء على الثقافة الإسلامية : د / نادية العمري ص ١٦ مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٥

^(٣) لمحات في الثقافة الإسلامية : عمر عودة ص ٢٨ الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة .

^(٤) نحو ثقافة إسلامية : د/ عمر سليمان الأشقر ص ٢٢ دار النفائس . الطبعة الثانية عشرة سنة ٢٠٠٥

ثالثاً : تعريف الثقافة الإسلامية :

عرفت الثقافة الإسلامية بعدة تعريفات منها ما يلي :

١- تعليم العلوم من قرآن وحديث وفقه ونحو ذلك ومكارم الأخلاق التي تحلت بها الأمة الإسلامية بعد تلك الحالة التي كانت عليها الأمة العربية في عهد الجاهلية بسبب بعثة النبي ﷺ (١).

٢- الثقافة الإسلامية تعني مجموع القيم والمبادئ الإنسانية التي أرادها الله ﷻ لعباده فآمن بها المجتمع المسلم وأصبحت جزءاً من سلوك أفراده وعلامة على إنجازاته (٢).

٣- كما عرفت الثقافة الإسلامية بأنها الصورة الحسية للأمة الإسلامية فهي التي تحدد ملامح شخصيتها وقوام وجودها ، وهي التي تضبط سيرها في الحياة وتحدد اتجاهها فيه، إنها عقيدتها التي تؤمن بها ومبادئها التي تحرص عليها ونظمها التي تعمل على التزامها ، وتراثها الذي تخشى عليه من الضياع والانتثار ، وفكرها الذي تود له النيوح والانتشار (٣).

وأرى أن هذا التعريف يعد جامعاً لأنه يظهر سمت الشخصية المسلمة وهي تحدد مسارها في الحياة منضبطة بعقيدة راسخة وإيمان ثابت وقيم عليا ومثل رفيعة .

رابعاً : صلة الثقافة بالمفاهيم الأخرى :

ترد على ألسنة المفكرين وفي المعاجم والمؤلفات كلمات وثيقة الصلة بالثقافة كالحضارة والعلم والمدنية مثلاً ، بعضها يرادف مفهوم الثقافة والبعض الآخر يغايره فكان لا بد من تحديد تلك المفاهيم ، حتى تكون الصورة واضحة في ذهن القراء .

(١) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية : د / فاطمة المحجوب ٢٠٥/١١ دار الفكر العربي .

(٢) أساسيات الثقافة الإسلامية : د/ عبد الغني الكبيسي ص ١٧ مكتبة الفلاح الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٧ م .

(٣) لمحات في الثقافة الإسلامية : ص ١٧ مرجع سابق .

١- الحضارة :

الحضارة في اللغة : من حضر وهم خلاف البدو والحاضر ضد البادي ، والحضارة في المعاجم اللغوية هي حياة المدينة ، والبدوة حياة البادية ، والحضر : سكان المدن والبدو : سكان الصحراء فالحضارة على هذا تعني الرقي والتقدم .^(١)

والحضارة في الاصطلاح تعني عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني ؛ويدخل في ذلك الجوانب المادية والتنظيمية ، وتدخل فيه القيم التي يحملها هذا الدين غير منفصلة هذه عن تلك.^(٢)

والحضارة بهذا المعنى ترادف الثقافة إلى حد ما، فكلاهما يعني الرقي والتقدم في الجوانب المادية والروحية.

والواضح أن مفهوم الثقافة الإسلامية أشمل وأعمق من مفهوم الحضارة ؛لأن الثقافة إذا أضيفت إلى الإسلام فإنها تحمل الصبغة الربانية ، ولا تتوقف عند حد النهوض في الجوانب المعنوية و المادية، بل إنها تمتد في الآفاق ، حتى كأنك ترى الإسلام مجسداً في شخص مثقفيه .

٢- المدنية :

تعرف المدنية في اللغة بالحضارة واتساع العمران ^(٣)، يقال رجل مدني أي منسوب إلى المدنية، ورجل حضري أي منسوب إلى الحاضرة ، وعلى ذلك فلا فرق بين المدنية والحضارة ، وإذا قلنا إن فلاناً متحضر : يعني يميل إلى الحضر ويألف الناس ويأنس بهم ، فإنها لا تختلف كثيراً عن المقولة الشائعة عند علماء الاجتماع " الإنسان مدني بطبعه ".

^(١) مختار الصحاح : أبو بكر الرازي ص ١٤١ ط. المطابع الأميرية ١٩٢٥م.

^(٢) واقعنا المعاصر : محمد قطب ص ٩٣ ط دار الشروق سنة ١٩٩٧ م

^(٣) المعجم الوجيز ص ٥٧٦ .

والمدينة في الاصطلاح ترادف الحضارة عند كثير من أهل العلم ، حيث يرى العلامة ابن خلدون "أن الحضارة والمدينة هي المرحلة التي يرتقي إليها الإنسان في أحواله وعلومه وعوائده وصناعاته ، وهذه المرحلة هي المرحلة التي ينتقل فيها الإنسان من البداوة إلى الحضارة ، وفيها يتوسع في الرفاهية والغنى ، ويركن إلى الدعة والسكون ، ويستكثر من الأقوات والملابس ، ويتوسع في البيوت واختطاط المدن والأمصار ، ويتأنق في المطاعم والملابس ، ويبلغ في إتقان الصنائع كل مبلغ ، والحضارة عنده نهاية العمران " (١)

ومن العلماء من يجعل المدينة مقصورة على الرقي المادي فيبين الدكتور عبد المنعم النمر أن المدينة هي : درجة التقدم المادي الصناعي والزراعي في الحياة الخ . (٢)

وهذا التعريف أميل إليه ؛ لأن المدينة تعني في الغالب الرقي في البناء والتعمير والتشييد ، واستخدام الوسائل الحديثة في حياة الإنسان ، والحضارة تشمل الرقي المعنوي والمادي ، وهي ترادف الثقافة في نظر كثير من الكتاب .
والحق أن الثقافة في مفهومها لا تقف عند الرقي المعنوي والمادي ، إنها أعمق من ذلك وأدق وأشمل ، إنها السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية والمعتقدات والقيم التي تميز المسلم عن غيره . (٣)

٢- العلم :

العلم في اللغة : إدراك الشيء بحقيقته ومجموعة مسائل وأصول كلية تدور حول موضوع واحد ، وتعالج بمنهج معين وتنتهي إلى بعض النظريات والقوانين كعلم الزراعة وعلم الفلك وغير ذلك من العلوم . (٤)

(١) المقدمة : ابن خلدون ص ٢١٠-٢١٦ ط . دار القلم بيروت لبنان .

(٢) الثقافة الإسلامية : د. عبد المنعم النمر ص ٤٠ ط دار المعارف ١٩٨٧م .

(٣) الثقافة الإسلامية : د. عزمي طه وآخرون ص ٢٧ دار المناهج الأردن ١٩٩٦م .

(٤) المعجم الوجيز ص ٤٣٢ .

والعلم في الاصطلاح : مجموعة الحقائق التي توصل إليها العقل البشري في مراحل تفكيره وتجاربه وملاحظاته المتسلسلة بتسلسل الزمن والمحركة بالامتحانات المتكررة فلا تختلف بتفاوت الأذواق ولا تتغير بتطور المصالح .^(١)

ويعرف العلم أيضاً بأنه المعرفة التي تؤخذ عن طريق الملاحظة والتجربة والاستنتاج ، كعلم الطبيعة وعلم الكيمياء ، وسائر العلوم التجريبية الأخرى .^(٢)

وهذا النوع من العلم تراث إنساني عالمي ، لا تختص به أمة ، ولا تحتكره قارة من قارات الأرض ، فيكون غيرها عالة عليها فيه ، إنه مشاع كالهواء الذي تنتفسه ، والبحار التي تحيط باليابسة وتمخر فيها ألوف السفن حاملة مئات الأعلام ، ولا زالت الدول تتبارى وتتنافس في تحصيل هذه العلوم ، بل إن الدول الكبرى تبذل الأموال النفيسة في تحصيل ما توصلت إليه عقول العلماء ، وقد أقام الغرب بناءه العلمي الشامخ على النتائج التي توصل إليها علماءنا من قبل في مجال الطب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم .^(٣)

والعلم سواء أكان مادياً أم معنوياً فهو يعني المعرفة التامة لمفردات هذا العلم ، فالعالم في الفقه مثلاً له دراية عالية بمفرداته ، والعالم في الهندسة عارف بدقائق تخصصه ، أما المثقف فهو من يعرف جزئيات محددة عن علوم شتى، ولذلك يقال : اعرف شيء عن كل شيء تكن مثقفاً ، واعرف كل شيء عن شيء تكن عالماً .

أهداف الثقافة الإسلامية :

تهدف الثقافة الإسلامية إلى الأمور التالية :

١- تعريف دارس الثقافة على مفهومها ومجالاتها وخصائصها ومصادرها وأصولها ، بحيث يظهر له الفرق بين الثقافة وبين

^(١) منهج الثقافة الإسلامية : محب الدين الخطيب ص ١٤ ط دار أم القرى ١٤١٩ هـ .

^(٢) الثقافة والثقافة الإسلامية : سميح عاطف ص ٤٠ ط الشركة العالمية للكتاب الطبعة الرابعة سنة ١٩٩٣ م .

^(٣) نحو ثقافة إسلامية أصيلة : د. عمر الأشقر ص ٢٥ - ٢٦ (بتصرف) ط دار النفائس .

المصطلحات المقاربة لها ، كما يظهر له الفرق بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات .

٢- بناء تصور شمولي للدين الإسلامي باعتباره موجهاً لثقافة الأمة الإسلامية ومؤسساً لحضارتها ، وباعتباره ديناً عالمياً صالحاً لكل زمان ومكان .

٣- تحقيق الولاء للإسلام ، والتعرف على أهم التحديات التي تواجه الثقافة الإسلامية ، وتبصير المسلم بأعداء الإسلام.

٤- تؤسس الفهم الصحيح عن العبادة في الإسلام وطبيعتها ومجالاتها وخصائصها وأثرها في بناء الإنسان السوي في العقل والبدن والسلوك .^(١)

^(١) أساسيات الثقافة الإسلامية ص ١٧ .

المبحث الأول

مصادر الثقافة الإسلامية

يستقي المسلم ثقافته من مصادر عدة، منها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، واللغة العربية ، والتاريخ الإسلامي ، كما أن سيرة العلماء والمصلحين تعد رافداً رئيساً للثقافة الإسلامية.

أولاً : القرآن الكريم :

القرآن الكريم هو كتاب الله - تعالى - المنزل على قلب سيدنا رسول الله ﷺ - المنقول إلينا بالتواتر ، المفيد للقطع واليقين ، المكتوب في المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس .

والقرآن الكريم محفوظ بحفظ الله - تعالى - له قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ^(١) ، أحكمه الله - تعالى - فأتقن أحكامه وفصله فأحسن تفصيله . قال تعالى :

﴿ كَتَبَ أَحْكَمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾^(٢).

ونلمح عظمة القرآن الكريم في تثقيف المسلم وتهذيبه من وجوه :

١- القرآن الكريم لا يعتريه نقص ، ولا يتطرق إليه ريب ، فالمؤمن يطالعه بثقة واطمئنان ، وينهل منه برضاً واستحلاء ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾^(٣) ،

^١ (سورة الحجر الآية "٩" .

^٢ (سورة هود الآية "١" .

^٣ (سورة البقرة الآية "١" .

ويقول جل وعلا : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١)

٢- أن القرآن الكريم هداية الخالق _ جل وعلا _ لإصلاح الخلق
وشريعة السماء لأهل الأرض ، ورحمة الله الواسعة ، وحكمته البالغة ،
ونعمته السابغة ، بين الله - تعالى - فيه أمور الدين والدنيا ، من العقائد
والعبادات والأخلاق والمعاملات ، والسياسة والاقتصاد ، والعلاقات الإنسانية
وغير ذلك من الأمور التي تسمو بالمسلم ، وتضعه في المكان اللائق به ،
يقول الله - تعالى - : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً وَنُذْرًا لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢)

وقد أخرج الترمذي في سننه عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال
: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ألا إنها ستكون فتنة . فقلت : ما
المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر
ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار
قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين ،
وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء
، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد
، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا ﴿ إِنَّا
سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۗ ﴾ (٣) من قال به

(١) سورة فصلت الآية "٤٢"

(٢) سورة النحل من الآية "٨٩"

(٣) سورة الجن من الآيتين "١، ٢"

صدق ، ومن عمل به أُجِرَ ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراطٍ مستقيم" (١) .

٣- يدرك المسلم من خلال عقيدته أن القرآن الكريم ليس كتاب إعجازٍ وتحدٍّ فقط ، أو أن قراءته عمل تعبدي يؤجر الإنسان عليه فحسب ، بل إنه النور الذي تستضيء البشرية به ، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ^١ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ ^٢ مَن نَّشَاءُ ^٣ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ^٤ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ^٥ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ^٦ ﴾ (٢) ، وكذلك يوقن المسلمون أن الإعراض عن القرآن سبيل الشقاء في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ ^١ مَعِيشَةً ضَنْكًا ^٢ وَنَحْشُرُهُ ^٣ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ^٤ أَعْمَى ^٥ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي ^٦ أَعْمَى ^٧ وَقَدْ كُنْتُ ^٨ بَصِيرًا ^٩ ﴾ (٣) ، قال كذلك أُنَتِّكَ ^{١٠} ءَايَتُنَا ^{١١} فَانْسِيَهَا ^{١٢} وَكَذَلِكَ ^{١٣} الْيَوْمَ ^{١٤} تُنْسَى ^{١٥} ﴾ (٤) ، وأن الاستمساك به شرف وعزة ، ونجاة وهداية ، قال تعالى : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ ^١ بِالَّذِي ^٢ أُوحِيَ ^٣ إِلَيْكَ ^٤ إِنَّكَ ^٥ عَلَى ^٦ صِرَاطٍ ^٧ مُّسْتَقِيمٍ ^٨ ﴾ (٥) ، وإنه ^٩ لَذِكْرٌ ^{١٠} لَّكَ ^{١١} وَلِقَوْمِكَ ^{١٢} ﴾ (٤)

(١) أخرجه الترمذي في سننه ١٧٢/٥ وقال حديث غريب .

(٢) سورة الشورى الآيتان " ٥٢ " ، " ٥٣ "

(٣) سورة طه الآيات " ١٣٤ - ١٣٦ "

(٤) سورة الزخرف من الآيتين (٤٣ ، ٤٤)

ويقول -جلّ وعلا - : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾^(١) ، وهذا من دواعي إقبال المسلم عليه حفظاً وفهماً وتطبيقاً .

٤- لاشك أن المسلم عندما يطالع القصص القرآني ، وهو القصص الذي يأخذ منه الدروس والعبر ، ويستلهم الحجة والأسلوب ، فتسمو بصيرته وتعلو همته ، مما ينعكس على تكوينه وثقافته .

ولعظم القرآن الكريم وجليل قدره غنيت الأمة الإسلامية به عناية فائقة ، فحفظوا لفظه وفهموا معناه ، واستقاموا على العمل به ، وأفنوا أعمارهم في البحث فيه ، والكشف عن أسرارهِ ، فمنهم من ألف في تفسيرهِ ، ومنهم من ألف في رسمه وقراءته ، ومنهم من ألف في مُحكمهِ ومتشابههِ ، ومنهم من ألف في مكيه ومدنيه ، ومنهم من ألف في جمعه وتدوينهِ ، ومنهم من ألف في استنباط الأحكام منه ، ومنهم من ألف في ناسخه ومنسوخه ، ومنهم من ألف في أسباب نزوله ، ومنهم من ألف في إعجازه ، ومنهم من ألف في أمثاله ، ومنهم من ألف في أقسامهِ ، ، كما ألف العلماء في غريبهِ وإعرابه وقصصهِ وأمثاله ، وتناسب سورهِ وآياته ، وغير ذلك من العلوم المتكاثرة التي عمرت بها المكتبات الإسلامية ، وأسهمت بدورٍ فعّالٍ في تنقيف المسلمين وتنويرهم على مدار التاريخ .

ثانياً : السنة النبوية :

تعد سيرة الرسول - ﷺ - وأقواله وأفعاله وتقريراته مصدراً حياً من مصادر الثقافة الإسلامية وذلك من وجوه :

^(١) سورة الإسراء الآية (٩)

١- الاقتداء بالرسول ﷺ - بالنسبة للمسلم واجب شرعي يقول الله - تعالى - : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١)

حيث جمع الرسول ﷺ - من الأخلاق أعلاها ، ومن المكارم أسماها ، فكان قدوة في كل شئونه ، في رأفته ورحمته ، ويسره ومودته ، فقد كان - ﷺ - لين الجانب ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يفتح الكلام ويختتمه باسم الله ، ويتكلم بجوامع الكلم (٢) ، كلامه فصل لا فضول فيه ولا تقصير ، ليس بالجافي ولا المهين (٣) ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غصّ طرفه ، جل ضحكه التبسم ، يفتر عن مثل حب الغمام (٤) ، دائم البشر لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ولا فحاش ، ولا عيَاب ولا مدّاح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يؤيس منه راجيه ، ولا يخيب فيه ، وكان - ﷺ - يعطي كل واحد من جلسائه وأصحابه حقه من الالتفات إليه والعناية به ، وكان لا يقطع على أحد حديثه حتى يجور فيقطعه بنهي أو قيام (٥)

(١) سورة الأحزاب الآية (٢١)

(٢) أي يتكلم بالكلمات القليلة الجامعة للمعاني الكثيرة.

(٣) المحتقر.

(٤) يضحك عن أسنان جميلة بيضاء مثل اللؤلؤ المشبه بحب الغمام وهو البرد

(٥) الرسول المعلم : عبد الفتاح أبو غدة ص ٢٤ - ٢٩ دار البشائر الإسلامية بيروت الطبعة الرابعة ١٤٢٤ هـ -

٢٠٠٣م (بتصرف)

إن مناقب الرسول - ﷺ - لا سبيل إلى حصرها، فقد صنف فيها العلماء كتباً عدة ، وأسهبوا في الشرح والتوضيح ، وكان هذا التراث المصدر الأساس للثقافة الإسلامية .

٢- العمل بسنة الرسول - ﷺ - - القولية أو الفعلية أو تقريرات الرسول - ﷺ - من سمات الشخصية المسلمة ، وفي ذلك يقول الله - تعالى - «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» ^(١)، ويقول - جلّ وعلا - «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» ^(٢)

إن تطبيق أوامر النبي - ﷺ - والانصراف عن نواهيه في حياة المسلمين ، والتواصي فيما بينهم على ذلك أدى إلى سيادة الأدب النبوي في حياة المسلمين وسلوكهم ، وبذلك أصبحت سنة النبي - ﷺ - مصدراً من مصادر الثقافة الإسلامية .

٣- دون المسلمون منذ عهد الرسول - ﷺ - سننه النبوية ثم وضعوا قواعد لعلم الحديث حتى ظهرت السنة الصحيحة وشروحها ، على مدار القرون الماضية تملأ مكتبات المسلمين وينهل منها طلاب العلم .

وتأتي الكتب الستة في مقدمة الكتب الصحيحة وهي على الترتيب : صحيح البخاري، وصحيح مسلم ، وسنن النسائي ، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي ، وسنن ابن ماجه ، ولكل كتاب من تلك الكتب شروح عدة ، ولا يزال أهل العلم يطالعون كتب علوم السنة قراءة وشرحاً وتعليقاً وتحقيقاً ، حتى أصبحت المؤلفات في هذا المجال لا حصر لها ، وهي بذلك تعدّ من أهم روافد الثقافة الإسلامية .

^(١) سورة الحشر الآية (٧)

^(٢) سورة النساء الآية (٦٥)

ثالثاً: اللغة العربية :

تعد اللغة العربية من أقدم اللغات الحية على وجه الأرض ، وقد أدت دوراً مهماً في التاريخ الإنساني ، وكفيها شرفاً أنها حملت آخر رسالات السماء إلى الأرض ، يقول الله - تعالى - ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١).

إن اللغة العربية بلغت ما بلغه الإسلام ، وارتبطت بحياة المسلمين وأصبحت لغة العلم والأدب والسياسة والحضارة ، فضلاً عن كونها لغة الدين والعبادة ، وقد استطاعت اللغة العربية أن تستوعب الحضارات المختلفة ، العربية والفارسية واليونانية والهندية المعاصرة لها في ذلك الوقت ، وأن تجعل منها حضارة واحدة عالمية المنزع إنسانية الرؤية ، وتظهر أهمية اللغة العربية من حيث كونها مصدراً للثقافة الإسلامية من وجوه :

١- اللغة وسيلة للتخاطب بين الناس ، وأداة الفهم وإفهام ومن خلالها يظهر معتقد الإنسان وبها يسمو على غيره من الحيوان والجماد . يقول العلامة عبد القاهر الجرجاني : " الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها ويبين مراتبها ، ويكشف عن صورها ، ويجني صنوف ثمرها ، ويدل على سرائرها ، ويبرز مكنون ضمائرها ، وبه أبان الله - تعالى - الإنسان من سائر الحيوان ، ونبه فيه على عظيم الامتتان فقال - عز من قائل :

﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ

الْبَيَانَ﴾ (٢) ،

فلولاه لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه ، ولا صح عن العاقل أن يفتق عن أزهير العقل كمائمه ، ولتعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها ، واستوت

(١) سورة الزخرف الآية (٣)

(٢) سورة الرحمن الآيات من (١-٤)

القضايا في وجودها وفانيها ، نعم ، ولوقع الحي الحساس في مرتبة الجمار ،
ولكان الإدراك كالذي ينافيه من الأضداد ، ولبقيت القلوب مقفلة تتصون على
ودائعها ، والمعاني مسجونة في مواضعها ، ولصارت القرائح عن تصرفها
معقولة ، والأذهان عن سلطانها معزولة ، ولما عُرف كفرٌ من إيمان ، وإساءة من
إحسان ، ولما ظهر فرق بين مدح وتزيين ، ونمّ وتهجين ^(١).

٢- اللغة العربية ومعرفة آثارها هو السبيل لمعرفة مراد الله - تعالى -

ومراد رسوله - ﷺ - حتى تكون العبادة مطابقة لشرع الله - تعالى -
- ويحسن المسلمون إبلاغهم عن الله - تعالى - على الوجه السليم
استجابة لقوله - جلّ وعلا - : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ^(٢)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " لابد في تفسير القرآن والحديث من أن
نعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ ، وكيف يفهم كلامه ،
فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله
بكلامه ، كذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني ، فإن عامة ضلال أهل البدع
كان بهذا السبب ، فإنهم كانوا يحملون كلام الله على ما يدعون أنه دال عليه ،
ولا يكون الأمر كذلك . " ^(٣)

إن طرق دلالة الألفاظ على المعاني وفيما يفيد العموم من الصيغ ، وفيما
يدل على العام والمطلق والمشتك فيما يحتتمل التأويل وما لا يحتتمل التأويل ،
وفي أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وفي أن العطف يقتضي
المغايرة ، وأن الأمر المطلق يقتضي الوجوب ، وغير ذلك من القواعد اللغوية

^(١) أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ص (٢)

^(٢) سورة آل عمران من الآية (١١٠)

^(٣) كتاب الإيمان : ابن تيمية ص (١٤٧) ط . المكتب الإسلامي . عمان . الأردن

التي دونها علماء أصول الفقه لا سبيل إلى معرفتها ، ومن ثمَّ العمل بمقتضى الشرع إلا من خلال معرفة اللغة العربية .

وقد أشار إلى ذلك الإمام الشافعي في أقدم كتب أصول الفقه فقال : " يخاطب بالشيء منه عاماً وظاهراً يراد به العام الظاهر ، وعاماً ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص ، وعاماً ظاهراً يراد به الخاص ، ظاهراً يعرف في سياقه أنه يراد به غير الظاهر . (١)

٣- تعد اللغة العربية إحدى مقومات الوحدة العربية والإسلامية ، فالفصحى هي جسر التواصل بين أفراد الأمة ، وهي العروة الوثقى التي يتحدون من خلالها تحت راية واحدة في ظل عالم يميل إلى التكتلات والتجمعات ، نظراً لمكانة العربية في نفوس أبنائها أدرك الغرب ذلك فعمد إبان احتلاله لبلاد المسلمين إلى فرض لغة المحتل بقصد فصل المسلمين عن تراثهم المجيد.

رابعاً : التاريخ الإسلامي :

للتاريخ أهمية كبيرة في حياة الناس فهو سجل ماضي الأمم وشعوبها ، يرصد أحوالها وظروفها ، ويبين عوامل رقيها وسقوطها ، ويظهر عادات الأمم وسلوكها ، ويكشف عن الصراعات بين الدول وآثارها ، مما يترتب على ذلك من دروس وعبر .

والتاريخ الإسلامي يسجل سير الدعوة الإسلامية منذ فجر الإسلام ، ويظهر الأحداث والوقائع ، وما يتصل بها من أسباب وآثار ، ويعد التاريخ أحد مصادر الثقافة الإسلامية وذلك من وجوه :

١- من ثمرات معرفة التاريخ بالنسبة للمسلم التعرف على سيرة

القرون الأولى التي قال عنها رسول الله - ﷺ - " خيرُ الناسِ قرني ثم الذين

(١) الرسالة: الشافعي ص ٥١ - ٥٢ ت أحمد شاكر دار الكتب العلمية.

يُلَوْنَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلَوْنُهُمْ " (١) ، إذ في سيرة هؤلاء وأحوالهم في طلب العلم والجهاد في سبيل الله ونشر العدل ودفع الظلم والاستمساك بهدي الإسلام ما يعمل في تشكيل عقلية المسلم على الوجهة الصحيحة وتربية المجتمع على مبادئ الإسلام وتعاليمه .

٢- تؤدي دراسة التاريخ الإسلامي إلى تبصرة المسلم بصحيح دينه بعيداً عن البدع والخرافات التي يحسبها البعض أنها من الإسلام وهو منها براء ، وتعرية الحركات والمذاهب التي أُلصقت بالإسلام ، وكانت في حقيقتها حرباً عليه ، ذلك لأن التاريخ منهج بحث ووسيلة من وسائل الكشف عن الحقائق وإثباتها .

٣- يسطر الإسلام في صفحاته أحداثاً متشابهة ، ومواقف متماثلة تساعد المؤمن على كشف سنن الله - تعالى - في الكون ، تلك السنن التي هي في غاية الدقة والعدل والثبات .

وإن معرفة المسلم بسنن الله - تعالى - في الكون تدفعه إلى أخذ العظة والعبرة ، فيستقيم أمره ، وهذا ما عناه القرآن الكريم في قوله - تعالى - ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) ، وفي قوله - تعالى - : ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣)

وباستقراء التاريخ يدرك المرء أن سوء عاقبة المكذبين من سنن الله - تعالى - في الكون ، فمهما علا أهل الباطل ، وكثر جنده ، وازداد طغيانهم فمآلهم إلى زوال ، وعاقبتهم الخسران ، قال تعالى : ﴿ وَقَوْمٌ نُّوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وعاداً

(١) أخرجه مسلم : كتاب : فضائل الصحابة ، باب : فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ١٩٦٢/٤ رقم (٢٢٣٢)

(٢) سورة آل عمران الآية (١٣٧)

(٣) سورة غافر من الآية (٨٥)

وَتُمُودًا وَأَصْحَبَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٧﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴿١﴾ ، ومن سنن الله - تعالى - مداولة الأيام بين الناس من الشدة والرخاء ، والقوة والضعف ، والغنى والفقر ، قال - تعالى - ﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٢﴾ ، ومن السنن الربانية أن زوال الأمم يكون بالترف والفساد ، فإذا ما تجبرت أمة من الأمم ، وعلت في الأرض وأصابها البطر والكبرياء ، هيا الله - تعالى - لها أسباب الانهيار والزوال ، فأصبحت خبرا بعد عيان قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٣﴾ وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ﴿٤﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿٦﴾ فَأَكْرَمُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ ﴿٣﴾ ، هذا جانب من سنن الله - تعالى - الوفيرة ، يزداد المؤمن من خلال قراءة التاريخ الصحيح ثباتاً على الحق ، وحرصاً على الدين ، وقوة أمام خطوب الدهر ونوازله.

وتزخر المكتبات الإسلامية اليوم بمؤلفات عدة في التاريخ بعضها يعنى بالتاريخ منذ بدء الخليقة ، وبعضها يؤرخ مؤلفه منذ ظهور الإسلام ، والبعض الآخر يعنى بتاريخ البلدان ، ويعد كتاب البداية والنهاية لابن كثير في مقدمة كتب التاريخ ، وهناك تاريخ الطبري لابن جرير ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ، والمقدمة لابن خلدون ، وعجائب الآثار للجبرتي ، وتاريخ الإسلام للذهبي ، ومن المؤلفين من عني بتاريخ البلدان كابن عساكر في تاريخ دمشق ،

١ (سورة الفرقان الآيات (٣٧ - ٣٩)

٢ (سورة آل عمران الآية (١٤٠)

٣ (سورة الفجر الآيات (٧ - ١٤)

والبغدادي في تاريخ بغداد ، وهناك كتب التاريخ التي تعنى بسير الخلفاء الراشدين وتاريخ الفتوحات الإسلامية وكتب التراجم والأخبار ، ولا شك أن هذا التراث الذي يسرد أحوال الناس وعاداتهم وجهادهم وسائر أمورهم يعد من روافد الثقافة الإسلامية.

خامساً : سيرة العلماء والمصلحين :

هيا الله - تعالى - للأمة بعد وفاة الرسول - ﷺ - وانقطاع الوحي العلماء الأجلاء ليقوموا بحفظ الدين، وصيانة الشريعة، وهداية الناس إلى الحق وإرشادهم هم لى مكارم الأخلاق، فكانوا نجوماً يهتدى بهم ، وأعلاماً يقتدى بهم ، قال الله - تعالى - في شأن العلماء : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ ^(١) ، ويقول جل وعلا : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٢).

إن فضل العلماء عظيم ، ورتبتهم سامية ، ومكانتهم عالية ، نظراً لشرف المهمة التي يقومون بها، يقول الرسول ﷺ : «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ» ^(٣) ، وشرف العلماء والمصلحين مستمد من شرف الأنبياء والمرسلين ، يقول الرسول - ﷺ - (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، أَلَا وَإِنَّ

^(١) سورة المجادلة من الآية (١١)

^(٢) سورة الزمر الآية (٩)

^(٣) أخرجه الترمذي في كتاب العلم باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ٥٠/٥ رقم (٢٦٨٥) .

الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطٍّ وَافِرٍ (١).

وتعد سيرة العلماء والمصلحين مصدراً من مصادر الثقافة الإسلامية ، وللصحابية - رضوان الله عليهم - قصب السبق في هذا المجال ، وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون - رضي الله عنهم - ، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة . (٢) .

ويأتي بعد الصحابة - رضوان الله عنهم - التابعون وأتباعهم ، وأصحاب القرون الثلاثة الأولى ، ثم يأتي بعد ذلك المجددون ، والذين اصطلاح أهل العلم على تسميتهم . (٣) .

وتبدو أهمية السيرة العلمية للعلماء والمصلحين بالنسبة للثقافة الإسلامية من وجوه :

١- يتخذ الناس - عادةً - العلماء والمصلحين مثلاً أعلى ، فمناقبتهم الحميدة ، وهمتهم العالية تكون - دائماً - محل اعتبار ، حيث ينأسى بهم الناس في سلوكهم ، ثم تنقل تلك المكارم عبر الأجيال ، وتسهم بشكل فعال في تنمية الثقافة لدى أفراد المجتمع المسلم .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ب تفاضل أهل الإيمان ٧١/١ رقم (٥١).

(٢) حديث العشرة المبشرين بالجنة أخرجه غير واحد من أهل الحديث ، وفي رواية أحمد والترمذي عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله - ﷺ - "أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو غيبة بن الجراح في الجنة". أخرجه أحمد في مسنده ، وأخرجه الترمذي في كتاب المناقب ، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف .

(٣) أخرج أبو داود في سننه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا». أخرجه أبوداود في السنن رقم (٤٢٩١) والحاكم في المستدرک ٥٢٢/٤ ، وصححه الألباني في السلسلة رقم (٥٩٩) وصححه الإمام أحمد في السير ٤٦/١٠ وقد اختلف العلماء في تحديد المجددين كل حسب رؤيته ، والأمر فيه سعة ، لأن العام الواحد قد يكون فيه أكثر من مجدد ، وذلك بحسب اختلاف فروع العلوم الشرعية ، ويعد عمر بن عبد العزيز مجدد المائة الأولى ، ويأتي بعده الإمام أحمد بن حنبل في المائة الثانية ، وقال آخرون إن مجدد المائة الثانية الإمام الشافعي ، ومنهم ابن جرير الطبري ، وأبو بكر بن العربي ، وابن تيمية ، وابن حجر العسقلاني ، وأبو الحسن الأشعري ، وقد ألف الحافظ السيوطي في المجددين حسب رؤيته وهم على الترتيب : عمر بن عبد العزيز ، والشافعي ، وابن شريح ، والأشعري ، والباقلاني ، والغزالي ، والفخر الرازي ، وابن دقيق العيد ، والبلقيني ، وقد عد السيوطي نفسه مجدد المائة التاسعة .

٢- تمثل المواقف السديدة للعلماء إزاء القضايا المهمة مصدرا يسهم في التكوين الثقافي لشخصية المسلم ، ذلك أن التاريخ يسجل الصور المشرقة للعلماء والمشاهير ، فلن ينس التاريخ مواقف الإمام أحمد بن حنبل السديدة ، لاسيما موقفه من قضية خلق القرآن ، وتعدُّ جهود شيخ الإسلام ابن تيمية ضد الزنادقة والملحدين وأثره في مواجهة التتار صورةً يُحتذى بها ، ولا يخفى على أحد ما قام به الإمام محمد بن عبد الوهاب من إحياء السنة ورد البدع .

والتاريخ الإسلامي شاهد صدق على ما قام به رواد الإصلاح من أمثال جمال الدين الأفغاني ، والإمام محمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وسليم البشري، والشيخ محمود خطاب السبكي ، وحسن البنا وغيرهم كثير ممن أسهموا بإصلاحات رشيدة .

٣- تفقيه أهل العلم المسلمين ما جهلوه ، وإصلاح ما غيروه وبدلوه ، ووقوفهم في وجه الانحرافات والفتن التي تهب على الأمة الإسلامية ، ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام وتسديد الحكام .^(١)

^(١) نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص ٦٠ .

المبحث الثاني

سمات الثقافة الإسلامية

تتسم الثقافة الإسلامية بسمات عدة من أهمها ما يلي:

١- الربانية:

تستمد الثقافة الإسلامية مناهجها الأصلية من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، فمط الحياة الذي تحياه الأمة الإسلامية صبغة إلهية ، قال تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾^(١) ، والوحي كلام الله - تعالى - الذي لا يتغير ، وشريعته التي لا تتبدل ، قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُدْ لِحَافِظُونَ ﴾^(٢) ، وفي شأن السنة النبوية يقول جل وعلا : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾^(٣) .

والحق أن البعد عن المنهج الرباني سبيل الشقاء في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾^(٤) ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا^(٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا^(٦) وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى^(٧) ﴾^(٨) ، كما أن السير على المنهج الرباني سبيل السعادة الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً^(٩)

^(١) سورة البقرة من الآية (١٣٨).

^(٢) سورة الحجر من الآية (٩) .

^(٣) سورة النجم الآيتان (٣ - ٤) .

^(٤) سورة طه الآيات (١٣٤ - ١٣٦) .

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾^(١) ، وقد تحقق الرقي الروحي والمادي للمسلمين في ظل الثقافة الإسلامية رداً من الزمان ، فسادوا وقادوا ، وقدموا للبشرية أعظم حضارة عرفها التاريخ الإنساني ، وأي ثقافة تستند إلى غير منهج الله - تعالى - لا تصنع مجتمعاً سوياً ، ولا تنشئ نظاماً مثالياً .

لقد اعتمدت الثقافة الغربية في مصادرها على الفكر الوضعي ، والفلسفات البشرية ، الرومانية واليونانية ، والنصرانية المحرفة ، وكانت النتيجة لدى أصحاب هذا الفكر أنهم اختلفوا حسب تصرفاتهم وما في أذهانهم من قضايا وإشكالات ؛ فمنهم من جعل الطبيعة والمادة أساس المعرفة، بل هي التي تعطي الإنسان كل شيء ، وهي التي تخلقه ، ومن هؤلاء من زعم أن الاقتصاد هو أساس هذه الإشكاليات التي يتعرضون لها فأعطوه السيطرة والسيادة.^(٢)

إن مبادئ الثقافة الإسلامية وأحكامها خالية من معاني الجور والنقص والهوى لأن واضعها هو الله - ﷻ - المتصف بالكمال المطلق الذي هو من لوازم ذاته العلية ، بخلاف القوانين الوضعية التي لا تتفك عن هذه المعاني ، لأنها صادرة عن الإنسان ، والإنسان لا يخلو عن معاني الجهل والجور والنقص والهوى^(٣).

٢- العالمية :

استطاع الإسلام - بفضل مبادئه - أن يصنع من القبائل المتناحرة والشعوب المتنافرة مجتمعاً مترابطاً متلاحماً ، وفي ظل الثقافة الإسلامية ذابت الفوارق ، وانتفت العصبية ، واختفت الجنسيات ، وأصبح الإسلام سمّت

^(١) سورة النحل الآية (٩٧)

^(٢) مدخل إلى دراسة الثقافة الإسلامية : د. سمير السيد ص ٤٧ ط جامعية

^(٣) أساسيات الثقافة الإسلامية ص ٢١ . مرجع سابق .

الجميع ، فوقف بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي جنباً إلى جنب بجوار أبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - في ساحة هذا الدين الفسيحة ، لا عصبية ولا قبلية ، بل ميزان التفاضل بين الجميع التقوى والعمل الصالح ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾^(١) .

ولما كانت الثقافة الإسلامية عالمية لا تخص جنساً بعينه ، رأينا أناساً من أجناس مختلفة انصهروا مع إخوانهم العرب وتباروا في نشر التراث ، يقول ابن خلدون : " من الغريب أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم من العجم ^(٢) ، وهل كان سيبيويه والبخاري ومسلم والترمذي والجرجاني والسجستاني إلا أعاجم ؟!

أما الثقافات البشرية شرقية كانت أم غربية فإنها كانت تتسم بالعنصرية المقيتة ، وتقسّم الناس على اختلاف لغاتهم وألوانهم ، واستخدم هذا الفكر أداة لتحقير الإنسان وشل قدراته ، واستند أصحاب تلك المذاهب الفاسدة إلى أساطير دينية ، وآراء فلسفية لا تمت إلى الحقيقة بصلة .

فالثقافة اليهودية تعتبر أن اليهود شعب الله المختار ، لأن نفوس اليهود تنبثق من جوهر الله كما ينبثق الولد من جوهر أبيه ، وبقية شعوب الأرض ليست سوى أنواع مختلفة من الحيوانات ^(٣) .

وبناءً على ذلك يرى اليهود أن جميع خيرات الأرض ملك لبني إسرائيل ، وأن النصارى والمسلمين وعبد الأوثان خلقوا عبيداً لهم ^(٤) .

والثقافة الهندية تقسم أفراد المجتمع إلى أربع طبقات ، وهم طبقة (البراهمتا) وتضم المثقفين والكهنة ، وطبقة (الكشرايا) وهم العسكريون والإداريون ، وهؤلاء خلقوا من ذراع البراهمتا ، والطبقة الثالثة هم (الفيشايا)

^(١) سورة الحجرات من الآية (١٣)

^(٢) المقدمة: ابن خلدون ص ٥٤٣ ط. دار القلم ، الطبعة السادسة بيروت . لبنان .

^(٣) اليهود عقائد وتاريخ إجرامي : فاخذ سويد ص ١٢٤-١٢٥ مؤسسة سندباد ، دمشق .

^(٤) الأخبار في الثقافة اليهودية : يوسف يوسف ص ٣٨ ، ٣٩ دار القلم دمشق .

ومهمتهم العمل في الزراعة وتربية المواشي والتجارة وتأمين السلع الضرورية ، وقد خلُقوا من ذراعي البراهمنا ، أما الطبقة الأخيرة فهم (الشودراد) وهم العمال والخدم وهؤلاء خلُقوا من فخذي البراهمنا .^(١)

وشاع عند اليونانيين أسطورة تتعلق بأصل الخلق ، وإعلاء بعض الأجناس على بعض ، وتناقلت تلك الأساطير عبر الأجيال ، وروّج لها المفكرون الغربيون في العصر الحديث .

ويعد الكونت (جوبينو) الكاتب الفرنسي أول من قسم البشر إلى أعراق في كتابه " مقال في التفاوت بين الأعراق الإنسانية) حيث ذهب إلى أن الجنس الآري هو مؤسس الحضارة ، وأن السمات المتفوقة لهذا العرق لا يمكن الحفاظ عليها إلا من خلال "النقاء العنصري" ^(٢)، ويرى المستشرق والسياسي الألماني " كارل هينرش " (١٨٧٦-١٩٣٣) أن الفن عند الآريين أسمى من الفن عند الساميين ، لأنه تركيب قائم على وحدة الموضوع بخلاف الفنون عند الساميين التي تفتقد إلى ذلك .^(٣)

ويبالغ المستشرق الفرنسي " رينان " في العنصرية عندما يقول : " إن العرق السامي لم يخلق للحضارة والفلسفة والفكر العقلاني ، وجنس واحد يلد السادة والأبطال هو الجنس الأوربي ."^(٤)

وقد صنف " هتلر " البشر فجعل أمته في المرتبة الأولى وجعل العرب في المرتبة الرابعة عشرة ، ولم يبق وراءهم إلا اليهود والكلاب ، وكان شعاره " ألمانيا فوق الجميع " ^(٥) وأمريكا التي تنصب نفسها - اليوم - قائدة للحضارة الإنسانية تعيش في عنصرية ، فقد أنتت بملايين الأفريقيين السود ليكونوا رقيقاً

^(١) (الأديان القديمة : محمد أبو زهرة ص ١٣-١٤ دار الفكر العربي ٢٠٠٦ م .

^(٢) (اليهود واليهودية والصهيونية : د. عبد الوهاب المسيري المجلد الثاني ١/٥ دار الشروق الطبعة السادسة ١٩٩٩ م .

^(٣) (تاريخ الفكر الفلسفي : د. محمد علي أبوريان ص ١٠ دار المعرفة الإسكندرية ١٩٨٣ م .

^(٤) (الثقافة الإسلامية : عبد الكريم عثمان ص ١٦ .

^(٥) (نحو ثقافة إسلامية أصيلة : د. عمر الأشقر ص ٧١ مرجع سابق .

، وقد واجه هؤلاء البؤساء صنوف العذاب والهوان ، إذ كانوا يعاملون معاملة الحيوان من ضرب وإهانة وقتل ، قامت حركات تحريرية كثيرة لإلغاء التمييز العنصري ، ولكن هذا التمييز بين البيض والسود ما زال قائماً ، فكل لون أحياء مستقلة، وفنادق مستقلة ، ومطاعم مستقلة ، ووسائل نقل مستقلة ، وكل من عاش في أمريكا حتى الثمانينات يعرف أن هناك مناطق سكنية لا يُسمح للسود بشراء عقار فيها ، ولو كان المواطن الأسود قادراً على شرائه ، ولم يقتصر عدم المساواة على فرص السكن ، بل تعداه إلى عدم إتاحة فرص وظيفية متساوية أمام السود والبيض ، وقسوة المجتمع الأمريكي على غير البيض لا تقتصر على السود فقط بل تشمل أعراقاً أخرى من أبرزها : الهنود الحمر الذين يتصدرون قائمة المنبوذين والمُعذَّبين (١).

إن ثقافة تزرع بمثل تلك الأفكار الرديئة من شأنها تدمير المجتمع من خلال العداء والبغضاء اللذين يسيطران عليه نتيجة للتفرقة العنصرية .
لقد حاربت الثقافة الإسلامية التمييز العنصري منذ بدء الدعوة ، يقول الرسول ﷺ - : " أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لَأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى " (٢).

وإن الثقافة الإسلامية لتذكر بمداد من الفخار سيرة عبد الحميد الثاني السلطان الذي حافظ على تراب الأمة الإسلامية وسيرة صلاح الدين الأيوبي وقطر ودورها في مواجهة الصليبيين ، وهؤلاء عجم لا عرب ، نذكرهم لأن تعاليم الإسلام جاءت للإنسان باعتباره إنساناً بغض النظر عن جنسه ولونه وموطنه ، فعناصر الثقافة الإسلامية التربوية والنفسية والروحية الأخلاقية جاءت أحكامها وفق الطبيعة الذاتية للإنسان مجردة عن إطار الزمان والمكان

(١) المجتمع المسلم كما بينه الإسلام في القرآن والفقه : د. محمد الهاشمي ص ١٢٦-١٢٧ (بتصرف) دار البشائر الإسلامية الطبعة الأولى سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤٧/١ رقم (٢٢٩) وقال عنه الألباني " صحيح لغيره " في السلسلة رقم ٢٩٦٤.

، ذلك لأن الإنسان كإنسان ثابت لا يتغير ، ولا يتبدل في روحه وعواطفه وأشواقه وضروراته وغرائزه .^(١)

٢- التوازن :

من خصائص الثقافة الإسلامية أنها تتسم بالوسطية والتوازن بين العقل والوحي ، وبين العلم والإيمان ، بين المادة والروح ، بين الحقوق والواجبات ، بين الفردية والجماعية ، بين الإلهام والالتزام ، بين النص والاجتهاد ، بين المثال والواقع ، بين استلهام الماضي والتطلع إلى المستقبل .^(٢)

ذلك أن الاستخلاف الذي منحه الله - تعالى - للإنسان على كوكب الأرض لا يتحقق عند ما يطغى جانب من تلك الجوانب المتقدمة على حساب آخر فقد أثبتت التجربة انه إذا تغلبت جماعة لا تعبد إلا المادة، وما يتصل بها من لذة ومنفعة محسوسة، ولا تؤمن بما وراء الحس أثرت طبيعتها وميولها في وضع المدنية وشكلها وطبيعتها بطباعها، فكملت نواح للإنسانية واختلت نواح أخرى أهم منها، عاشت هذه المدنية وازدهرت في الجص والأجر، وفي الورق والقماش، وفي الحديد والرصاص وأخصبت في ميادين الحروب وساحات القتال، وأجذبت في القلوب والأرواح، وفي علاقة الأخ بأخيه، والولد بوالده، والرجل بصديقه، وأصبحت المدنية كجسم ضخم متورم يملأ العين مهابة، ويشكو في قلبه آلاماً وأوجاعاً، وفي صحته انحرافاً واضطراباً.^(٣)

وإذا تغلبت جماعة تجدد المادة، ولا تهتم إلا بالروح، وتعادى هذه الحياة وتعاندها ذبلت زهرة المدنية، وهزلت القوى الإنسانية، وبدا الناس - بتأثير هذه القيادة - يؤثرون الفرار إلى الصحاري والخلوات على المدن، والعزوبة على الحياة الزوجية، ويعذبون الأجسام حتى يضعف سلطانها، فتتطهر الأرواح - كما يزعمون - ويؤثرون الموت على الحياة، لينتقلوا من مملكة المادة إلى

^(١) نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص ٧٢.

^(٢) الثقافة العربية الإسلامية : د. يوسف القرضاوي ص ٣١ مكتبة وهبة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ م

^(٣) أساسيات الثقافة الإسلامية ص ٢٦ (بتصرف) مرجع سابق.

إقليم الروح ويستوفوا كمالهم هنالك، لأن الكمال في عقيدتهم لا يحصل في العالم المادي. (١)

لذلك كان الإسلام حاسماً إزاء هذه القضية عندما دعا إلى الاعتدال وحذر من الغلو والتطرف يقول الله تعالى : (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ). (٢)

وقد طبق النبي ﷺ - هذا المنهج في صورة عملية حفاظاً على بقاء الأمة وحيويتها. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال: قال لي رسول الله ﷺ: " إنك لتصوم الدهر وتقوم الليل، فقلت نعم. قال: إنك إن فعلت ذلك هجمت لك العين، ونفثت له النفس لا صام من صام الدهر ، صوم ثلاثة أيام صوم الدهر كله، قلت إني أطيق أكثر من ذلك ، قال: فصم صوم داود - عليه السلام - كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى. (٣)

٤- الشمولية:

يعد الشمول من أهم سمات الثقافة الإسلامية، فهي ثقافة عامرة بالأحكام التي تهتم الإنسان عبر مراحل حياته المختلفة، منذ أن كان جنيناً في بطن أمه إلى نهاية حياته بالموت، مروراً بالطفولة والكهولة والشيخوخة، وتضع لكل مرحلة على حدة ما يتسق معها من أصول وقواعد شرعية ومن شمول هذه الثقافة واتساعها أيضاً أنها أعطت تصوراً واضحاً للقضايا التي شغلت الفكر الإنساني - عبر تاريخه الطويل - كعالم الغيب وما يندرج تحته من قضايا، مثل قضية وجود الله - تعالى - والملائكة والجنة والنار، والحياة البرزخية.

(٢) السابق ص ٢٦.

(٣) سورة القصص الآية (٧٧).

(٤) أخرجه مسلم ك الصيام ب النهي عن صيام الدهر ٨١٢/٢ رقم (١١٥٩).

وتحتوى الثقافة الإسلامية على مجموعة من القوانين التى تنظم الحياة العامة للمجتمع، في كل المجالات التى تخص الإنسان كالمجال السياسي والمجال التشريعي، والمجال الاجتماعي، والمجال الاقتصادي.

وشمولية الثقافة الإسلامية واضحة في القرآن الكريم الذي هو مصدر الثقافة الأول يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ) (١) ويقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (٢) ويقول جلا وعلا: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأَقْرَبِينَ) (٣) ويقول تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ) (٤)

ويقول عز ذكره: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ) (٥) ويقول سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ) (٦).

فهذه النصوص التى تشير إلى قضايا مختلفة، كالحديث عن الصوم والقصاص والوصية، والحايض والجهاد، والمواقيت، جاءت في سورة واحدة، وهذا نموذج مصغر لشمولية الإسلام.

(١) سورة البقرة الآية (١٧٨)

(٢) سورة البقرة الآية (١٨٣)

(٣) سورة البقرة الآية (١٨٠)

(٤) سورة البقرة الآية (١٨٩)

(٥) سورة البقرة الآية (٢٢٢)

(٦) سورة البقرة الآية (٢١٧)

٥- الواقعية:

تتسم الثقافة الإسلامية بالواقعية، وليس لمراد بالواقعية هنا الرضا بالواقع والتسليم له حسناً كان أم سيئاً، ولكن المراد بالواقعية أنها تضع التشريعات للإنسان من حيث هو إنسان، فيه القوة والضعف يعلو أحياناً ويهبط أحياناً، وهو بحاجة إلى الشريعة التي ترقى به إلى مدارج الكمال، وتنثي على استقامته إذا استقام وتبصره بخطأه حين يخطئ، وتفتح له باب التوبة إذا تاب، وتشرح له الأخذ بالرخص حين الضعف والمرض. (١)

والشريعة الإسلامية التي تفعل ذلك كله، أحلت الطيبات وحرمت الخبائث، وأحلت للمفطر تناول ما حرم عليه من الطعام وأوجبت الوضوء للصلاة، وأباحت التيمم حين فقد الماء، أو حين عدم القدرة على استعماله، وألزمت بالصلوات في أوقاتها بأعدادها المقررة ورخصت بالجمع والقصر في السفر، وشرعت الفطر للمسافر في رمضان، وغير ذلك من التشريعات التي يحتاجها الإنسان في ظروف معينة. (٢)

ومن واقعية الثقافة الإسلامية أن جعلت محفزات ومرغبات للعمل الصالح ومنفرات عن العمل السيء، لأن الإنسان بطبيعته لا يحركه إلى الخير ولا يبعده عن الشر إلا شوق يحفزه ويدفعه، أو خشية تحجزه وتمنعه، ومن واقعية الثقافة أنها أقرت بأن الإنسان مفطور على الميل إلى اللهو والمرح والترويح عن النفس، فضبطت ووجهت تلك الغريزة، ولم تمنعها وتكبتها، بل هذبتها، فأباحت كل لهو ليس فيه محرم، وأحلت الترويح عن النفس في إطار الشرع الحنيف.

ومن مظاهر الواقعية في الثقافة الإسلامية أنها لم تحرم شيئاً يحتاج إليه الإنسان في واقع حياته، كما لم تبح له شيئاً يضره.

(١) نحو ثقافة إسلامية ص ٧٥ مرجع سابق.

(٢) السابق ص ٧٥ (بتصرف)

ومن ثمرات الواقعية أنها تدفع الإنسان إلى التفاعل مع التكاليف الشرعية لأنها تراعى قدراته ووسعه، وتحفزه للإقتداء بالنماذج العملية الناجحة التي تمثلت الإسلام في حياتها فكانت إسلاماً واقعياً حياً من خلال تصرفاتها وسلوكها.

٦- الإيجابية:

من أهم سمات الثقافة الإسلامية أنها ثقافة إيجابية تدعم الحركة وتحث عليها، وتتفر من العزلة وتحذر من ضررها، لأن عمارة الكون، وتشديد صروح الحياة، لا يتأتى إلا من خلال تكاتف السواعد وتكامل العقول والأفكار. والأمة الإسلامية أمة عمل وسعى يقول الله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (١)

وقد نعى الإسلام على أولئك الذين حبسوا أنفسهم في الأديرة والصوامع، وعزفوا عن الدنيا وتركوها يقول الرسول - ﷺ -: " لا ضرورة في الإسلام " (٢) أي لا رهبنة أو تبذل.

إن الدنيا مزرعة الآخرة، وطريق الوصول إليها، وفي تلك الدار الفسيحة يتربى المسلم على نصرة الحق وإغاثة الملهوف، والحلم والرفق والحياء والوقار والوفاء بالعهد والعقود وطلاقة الوجه، والتمسك بالآداب، وغير ذلك من المظاهر التي تظهر الشخصية الإيجابية.

ومن مظاهر الإيجابية دعوة الثقافة الإسلامية إلى التعاون بين الناس على البر والتقوى، وحثها على الاختلاط بالناس وحضور جمعهم، ومجالس الذكر، وعيادة المريض وحضور الجنائز، ومواساة المحتاج، وإرشاد الجاهل،

(٢) سورة آل عمران الآية (١١٠)

(٣) سنن أبي داود ك المناسك ب لا ضرورة في الإسلام ٥٣٩/١ وضعه الألباني.

والإصلاح بين الناس، وفض المنازعات يقول الله تعالى : (لا خَيْرَ في كثيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) (١).

وإن الثقافة الإسلامية تفتح أمام المسلم أبواب العمل المشروع الذي يدر عليه أخلاف الرزق، ويمكنه من إشباع حاجاته الأساسية، وتحقيق كفايته وكفاية من يعول، ورفع مستواه المعيشي، كما يمكنه من الادخار لوقت الحاجة أو الشيخوخة أو المرض أو لانتفاع ذريته من بعده، والذي خلق الأرض وقدر فيها أقواتها، وبارك في ثمراتها يبارك للعاملين جهودهم، ولا يبخلهم حقوقهم، بل يرزقهم ويجعلهم ينعمون في رغد العيش وموفور الكرامة، وعزة النفس، وهذا أسمى معاني الإيجابية. (٢)

(١) سورة النساء الآية (١١٤)

(٢) المجتمع المسلم كما بينه الإسلام ص ١٥٦ - ١٥٧.

المبحث الثالث

أهم التحديات التي تواجه الثقافة الإسلامية

تواجه الثقافة الإسلامية تحديات عدة، تؤثر في المجتمع المسلم، فتبعده كثيراً عن القيم والمبادئ التي أرادها الله - تعالى - له ، وأسلوب الحياة الذي ينبغي أن يسود ابتعد عن الصورة الطبيعية للأمة الإسلامية، وذلك بسبب تحديات كثيرة أهمها ما يلي:

أولاً: التغريب:

التغريب تيار فكري ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية يرمى إلى صلب حياة المسلمين بالأسلوب الغربي، وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلة، وخصائصهم المتفردة، وجعلهم أسرى التبعية للحضارة الغربية، وقد اتخذ الغرب عدة وسائل لتغريب المجتمع الإسلامي، بقصد طمس هويته، وانحسار دور الثقافة في حياته، ومن تلك الوسائل ما يأتي:

١- التعليم:

يقول الدكتور محمد محمد حسين: " كانت الحضارة الأوروبية والثقافة الغربية تغزو الشرق الإسلامي في أشكال مختلفة، معاهد علمية، وشركات أجنبية، وبضائع وملابس وفرش وأثاث، وقد دأب الأمراء والأثرياء والطبقات العليا المستورزين والحكام على إرسال أبنائهم وبناتهم إلى هذه المدارس التي كانت تعد تلاميذها لأسمى المناصب، وأقبل عليها أبناء الطبقة المتوسطة تقليداً لهؤلاء الأثرياء في بعض الأحيان، وإعجاباً بنظامها المحكم الدقيق، وبراعة تلاميذها في اللغات الأجنبية التي تعد صاحبها لكثير من الأعمال المربحة في أحيان أخرى. (١)

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. د. محمد حسين ٢٥٩/١ مكتبة الآداب.

والحق أن المدارس والمعاهد والجامعات التي أنشئت في ربوع العالم الإسلامي بأموال الدول الغربية، لم يكن الهدف منها تعليم أبناء المسلمين، إنما كانت تهدف في المقام الأول، إلى فصل الشباب المسلم عن دينه، وتربيته على الثقافة الغربية، وقد صرح أقطاب الحضارة الغربية بذلك.

يقول هنري جب : " إن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إنما هو واسطة إلى غاية فقط، هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية، ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في نفسه، ولتخريج علماء الفلك وطبقات الأرض وخير الجراحين والأطباء فإننا لا نتردد حينئذ أن نقول إن رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيري المسيحي إلى مدى علماني محض " . (١)

وتكمن خطورة العملية التعليمية في المدارس الأجنبية التي كثرت في مصر ولبنان وسوريا والعراق والهند ومعظم الدول الإسلامية في أنها تعتمد على تربية النشء على القيم الغربية، وتحويل النفس العربية الإسلامية عن فكرها الأصيل، ودحضها لإعلاء ثقافة الغرب، وازدراء التراث والقيم العربية الإسلامية ، بالإضافة إلى تدريس فلسفات الأديان البائدة، وإثارة الشبهات حول الإسلام . (٢)

إن شباباً التحق بمثل هذه المدارس منذ طفولته حتى تخرجه في الجامعة .. ترى ماذا يمكن أن يحدث له..! مع الإدراك الكامل لتأثير العملية التعليمية في عقلية الإنسان ؟

وبعيداً عن المدارس الأجنبية فإن المناهج التعليمية في بعض الدول الإسلامية تعبت بها أيدي الخبراء الأجانب ، وكما كان " دنلوب " القس

(٢) الاستشراق والاستعمار في البلاد العربية. د. عمر فروخ وزميله ص ٦٦ نشر المكتبة الفردية صيد لبنان سنة ١٩٨٣م.

(١) سقوط العلمانية: أنور الجندي ص ٣١ (بتصرف) دار الكتاب اللبناني.

الانجليزي مستشاراً لوزارة المعارف إبان الاحتلال الانجليزي لمصر (١)، فإن أحفاده يقومون بنفس الدور في الوقت الراهن في بعض الدول الإسلامية .

ويضاف إلى ما سبق أن المبعوثين إلى أوروبا للدراسة في جامعتها يعودون إلى بلادهم بغير العقول التي ذهبوا بها ، ويعظم خطر تلك الفئة لأنهم - دائماً - يكونون في صدارة المجتمع.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: ولا غرو إذا رأينا هؤلاء المبعوثين إلى الغرب يذهبون إليه شرقيين مسلمين ويعودون - إلا من عصم الله - " متغربين " " علمانيين " " لا دينيين " ، لم يغيروا أسماءهم ولا دينهم الرسمي، ولكنهم غيروا أفكارهم وقيمهم ونظرتهم إلى الدين وإلى الحياة وإلى الناس وإلى الماضي وإلى الحاضر، وإلى النظم والشرائع وإلى الآداب والتقاليد، وبدا ذلك واضحاً في سلوكهم وعلاقاتهم، وفيما يكتبون وينتجون في ميدان الفكر والثقافة والتوجيه. (٢)

٢- الغزو الاجتماعي:

يعد الغزو الاجتماعي المتمثل في نقل عادات وتقاليد الغرب من أبرز المخاطر على الثقافة الإسلامية، فقد عمد الغرب على إدخال العادات والتقاليد الغربية والأنواق الغربية في حياة الأسرة المسلمة من خلال التعليم والصحافة والإعلام ، وإضفاء نعوت الرقي والتمدن على كل من ينسلخون عن شخصيتهم الدينية والقومية، ويمشون في ركاب الغرب ودعاة الحضارة الغربية. (٣)

لقد انحسرت العادات والتقاليد الأصيلة في بعض البلدان الإسلامية وحل محلها عادات وتقاليد غربية لا تمت إلى الإسلام بصلة، فظهرت التحية بين أفراد المجتمع بغير الصيغة التي علمنا إياها الإسلام - وهي في الأصل تحية أهل الجنة - وانتشرت المسارح ودور السينما، وأصبح لتلك الأماكن رواد

(٢) معالم تاريخ الإسلام: أنور الجندى ص ٦٠ ط دار الاعتصام ١٩٨٧.

(٣) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا د. يوسف القرضاوي ص ١٨ مكتبة وهبة.

(٤) السابق ص ٢٧ - ٢٨.

كثير، وسيطرت العامية على أفراد المجتمع العربي، ولم تعد الفصحى لغة الحوار، وكثرت الألفاظ الأجنبية في التعامل بين المسلمين.

٣- تغريب المرأة:

تغريب المرأة المسلمة من أخطر التحديات التي تواجه الثقافة الإسلامية، لأن الغرب وذيوله في بلاد المسلمين عمدوا منذ فترة إلى الدعوة إلى تحرير المرأة وكأن المرأة مكبلة بالأغلال والقيود!

إن الإسلام هو الذي حرر المرأة من ظلم الجاهلية، ومكانتها في دين الله - عز وجل - لا نظير لها في دين من الأديان، فقد ساوى الإسلام بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات، وجعلها سواء في التكاليف الشرعية والحقوق الشخصية، والكرامة الإنسانية، والحقوق المدنية في المعاملات والأموال.

أما تحرير المرأة من الوجهة الغربية فقد كان الهدف منه القضاء على الحجاب الإسلامي، وإباحة الاختلاط، وتقيد الطلاق، ومنع تعدد الزوجات... وبالفعل لم يمض زمن طويل حتى أصبح اختلاط البنين والبنات شيئاً مسلماً به في معاهد التعليم، وفي الحياة الاجتماعية، ودفعوا المرأة إلى ميادين العمل ومصارعة الحياة ومزاحمة الرجال، تقوم بما لم تهيئة لها طبيعتها وما لا تطيقه في كثير من الأحيان.^(١)

لا شك أن خروج المرأة في ديار المسلمين عن الصورة التي رسمها لها الإسلام، ووجود الإعلام الفاسد الذي يؤيد ذلك ويدعمه أدى إلى فصل قطاع كبير من المجتمع عن ثوابت دينه، وأضحت القيم والمثل الإسلامية هينة في نظره.

ثانياً: الغزو الفكري:

أدرك الغرب أنه لا سبيل إلى القضاء على الإسلام بالقوة العسكرية، وانه لابد من تغيير أسلوب المواجهة، فعمد إلى الغزو الفكري المنظم بقصد

(١) نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص (٨٥) بتصرف مرجع سابق.

إزالة مظاهر الحياة الإسلامية، وصرف المسلمين عن التمسك بدينهم، ولجأ في سبيل تحقيق ذلك إلى الوسائل التالية:

١- العلمانية:

والعلمانية ترجمة غير دقيقة لكلمة (Secularism) في الانجليزية أو (Secularly) أو (laïque) بالفرنسية ، وهي كلمة لا صلة لها بالعلم على الإطلاق كما يحاول البعض إيهام الآخرين، والترجمة الصحيحة للكلمة هي : اللادينية أو الدنيوية.(١)

وقد عرفها مجمع اللغة العربية في مصر بقوله : العلمانية مصدر صناعي، من العالم، أي الانتماء إلى العالم أو إلى الأرض دون الانتماء إلى الدين ، أو العلم ، والمقصود بها في لغتها الأصلية: فصل الدين عن الدولة، وإبعاد الكنيسة عن السلطة.(٢)

والعلمانية إذا كانت تعني فصل الدين عن الدولة، أو الانصراف عن الدين كلية، فإنها تهدف إلى إقامة مناهج الحياة بعيداً عن الدين، وعلى هذا الأساس لها ما يسوغ وجودها في الغرب، ذلك أن الكنيسة في أوروبا مارست ألواناً من الطغيان الروحي والعقلي والفكري على الناس، حيث تبنت العقائد الزائفة كصكوك الغفران، وقرارات الحرمان، وكراسي الاعتراف، وقولهم بالتثليث، وقولهم بالوهية المسيح - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - تلك العقائد التي عجز الإنسان عن استيعابها، واستأثر رجال الدين بمعرفة أسرارها، وربطوا إيمان الناس بها من غير فهم ولا مناقشة، ثم تسلط رجال الدين على الحياة بصفة عامة، فثارت أوروبا أمام ذلك الانحراف، وعزلت رجال الدين عن واقع الحياة.(٣)

والعلمانية بمفهومها السابق لا تتناسب مع الإسلام لسببين:

(٢) الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي: د. محمد البهي ص ٢٨٩ مكتبة وهبة.
(١) نشر ذلك في الأهرام المصرية بتاريخ ١٩٨٨/٨/٢٨م وانظر العلمانية: سفر الحوالي ص ٢١.
(٢) انظر: أساسيات الثقافة الإسلامية ص ٣٤٣ مرجع سابق.

أ- الإسلام دين متكامل، وشريعته تحكم كل جوانب الحياة، لا يمكن فصل جانب منه عن آخر، فالعقيدة والأخلاق، والسياسة والمعاملات، والعلاقات الإنسانية منظومة متشابكة تستمد مناهجها من القرآن والسنة.

ب- لا توجد في الإسلام سلطة روحية، ومهمة الأنبياء - عليهم السلام - والعلماء من بعدهم محددة في قول الله تعالى : (إن عليك إلا البلاغ) (١)، بل لا واسطة مطلقاً بين العابد والمعبود قال - جل وعلا - : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (٢).

إن الغرب يهدف من وراء تصدير العلمانية إلى بلاد المسلمين إلى الغايات التالية: (٣)

أ- عزل الدين عزلاً تاماً عن المجتمع، وإتاحة الفرصة لقيام تربية لا دينية، وقيام نظام سياسي لا يستهدي بالشريعة، وتأسيس الاقتصاد على أساس الربا.

ب- إبعاد قطاع أصيل من الفكر الإنساني، وهو جانب الروح والوحي وعالم الغيب، وكل ما يتصل بالدين من أخلاق وعقائد وإيمان بالله، وعزله عزلاً تاماً عن الحياة.

ج- إعلاء كلمة العقل والمادية والإلحاد، وإقامة منهج علماني يقيس المسائل المختلفة، سواء ما يتصل بالإنسان والمجتمع أو الحياة بمقاييس الحس والعقل والتجربة.

والسؤال هنا : هل استطاعت العلمانية إقصاء الدين عن ميدان الحياة ؟

(٣) سورة الشورى الآية (٤٨)

(٤) سورة البقرة الآية (١٨٦)

(٥) سقوط العلمانية: أنور الجندى ص ١٨ - ١٩ دار الكتاب اللبناني بيروت.

وباستقراء واقع المجتمعات الإسلامية يمكن القول: بأن الدين لا يوجه في الوقت الراهن الحياء بالصورة المطلوبة ففي الجانب السياسي، اقضى الدين جانباً، واحتكم الناس إلى غير شرع الله - تعالى - وساد القانون الفرنسي في معظم الدول الإسلامية، وإمعاناً في تأصيل هذا المبدأ، تدرس مواد القانون الفرنسي في كثير من الجامعات العربية، دون التفات لقول الله تعالى: (وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ) (١) وإلى قول الله - تعالى - : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) (٢)

وعندما ينادي بالعودة إلى تحكيم شرع الله - تعالى - يقف دعاة العلمانية قائلين " لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة " " الوحي مقدس والسياسة متغيرة " وغير ذلك من الأباطيل، وفات هؤلاء أن حديث القرآن الكريم عن الأمور السياسية كالحكم والعدل والشورى والإمامة يفوق بكثير حديثه عن الصلاة، ويفوق حديثه عن الصوم كذلك.

ولا يقل الجانب الاقتصادي في العالم الإسلامي تأثراً بالعلمانية عن الجانب السياسي، فالنظام الغربي عمد إلى تصدير الرأسمالية إلى بلاد المسلمين، وذلك المنهج الذي يجعل المال في يد فئة قليلة من أفراد المجتمع، دونما توزيع حقيقي للثروة، وتبع ذلك انتشار الربا والاحتكار وزيادة البطالة.

أما الثقافة الإسلامية تجاه المال فهي تقوم على احترام الملكية الخاصة للفرد والمجتمع، مع التوزيع العادل للثروة وفق أسس ثابتة حددتها الشريعة، التي تعتبر أن التكافل الاجتماعي من آداب هذا الدين، مع التحريم الكامل للربا والاحتكار.

(١) سورة المائدة الآية (٤٩).

(٢) سورة النساء الآية (١٠٥).

وأثار العلمانية لم تقف عن حد السياسة والاقتصاد، بل تعدت ذلك إلى الحياة الاجتماعية في بلاد المسلمين، من نظم وآداب، وقيم ومعاملات، وكلما زاد طغيان الفكر العلماني في المجتمع المسلم، انحسر أثر الثقافة فيه.

٢- الاستشراق:

وهو مصطلح يطلق على الدراسات المتعلقة بالشرقيين، شعوبهم وتاريخهم، وأديانهم ولغاتهم، وأوضاعهم الاجتماعية، وبلادهم وأرضهم وحضارتهم، وكل ما يتعلق بهم. (١)

ودراسة الغرب لتراث المسلمين بدأت مبكرة عندما ترجم القرآن الكريم لأول مرة إلى اللاتينية عام ١١٤٣م في أسبانيا، ثم نما هذا العلم عبر أطوار مختلفة إلى أن أصبح علماً تعترف به معظم الجامعات الأوروبية، ويلقى الدعم الكامل من رجال الدين والحكومات في الغرب على السواء. (٢)

والمستشرقون وهم الذين يدرسون الإسلام من أبناء الغرب لم يتخذوا - إلا قليلاً منهم - الموضوعية منهجاً في دراساتهم للفكر الإسلامي، بل عمدوا إلى إلقاء التهم، ونشر الشبه حول الإسلام بقصد تنفير المسلمين وغيرهم من الإسلام.

وفئات المستشرقين مختلفة، ووسائل الاستشراق متنوعة، وأساليبه تجاه الإسلام متعددة، وفي سبيل كشف تلك الحقائق صنفنا بحوث عدة. (٣)

وأثر الاستشراق على المجتمع المسلم يتضح من خلال ما يلي:

(٣) أجنحة المكر الثلاثة: د. عبد الرحمن حنيكه ص ٥٠ دار القلم دمشق ط (٧) سنة ١٤٩٣م.
(١) انظر الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية. رودي بارت ص ٩ - ١٣ ت د. مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
(٢) راجع في ذلك كتب المشرفون العقيقي والاستشراق لإدوارد سعيد والاستشراق في الأدبيات العربية لعللى إبراهيم النملة.

أ- لم يترك المستشرقون علماً من العلوم الإسلامية إلا كتبوا فيه، بدءاً من ترجمة القرآن الكريم إلى معظم اللغات الأوروبية، ثم معظم المؤلفات التي استطاعوا الوصول إليها.

يقول الأستاذ نجيب العفيفي: "وللمستشرقين في الإسلام ونبيه وخلفائه وفرقه وعلومه وآدابه وفنونه من التحقيقات والترجمات، والمصنفات بلغات عديدة، وفي بلدان كثيرة، وعلى مدى أجيال متواصلة، ما لو جمع بعضه إلى بعض لتألفت منه مكتبة حافلة بالكتب. (١)

وقد حوت ترجمة المستشرقين للتراث الإسلامي مطاعن عدة، وشبهاً لا حصر لها، فيعييون على القرآن الكريم، مدعين أن الرسول - ﷺ - نقله من الكتب السماوية السابقة، ويلصقون التهم بشخص رسول الله - ﷺ - ويقولون إن الشريعة الإسلامية لا تصلح في العصر الحاضر، وغير ذلك من المفتريات التي يذيعونها لتهوين الإسلام في نظر معتقيه.

ب- للمستشرقين حضور فعال، ومشاركات جادة في المحافل العلمية، والمجامع العربية (٢)، ويلتفت لآرائهم، وتوضع في الاعتبار، رغم ما فيها من مخاطر يقول الدكتور: مصطفى السباعي: ومن المؤسف أن أشدهم خطراً وعداءً للإسلام كانوا يستعدون إلى الجامعات العربية والإسلامية في القاهرة ودمشق وبغداد والرباط وكرايتشي ولاهور وعليكرة وغيرها ليتحدثوا عن الإسلام. (٣)

(٣) المستشرقون: نجيب العفيفي ٥١٢/٣ ط دار المعارف.

(٤) شارك كل من المستشرق جب الانجليزي و ماسينيون الفرنسي، ومرجليون وكارلوتلليو وفيشك في المجمع اللغوي في مصر راجع الاستشراق والتبشير لإبراهيم الخليل احمد ص ٦١ ط القاهرة وكذلك الفكر الإسلامي للدكتور محمد البهي ص ٤٥٠. وشارك في المجمع العلمي بدمشق كل من جريفي والمشرق جويدي وحيي ارثور انظر المرجع السابق ص ٤٣٨.

(٥) الاستشراق والمشرقين: د. مصطفى السباعي ص ٢٦ ط المكتب الإسلامي بيروت.

ج- يقوم المستشرقون بتوجيه طلاب العلم المسلمين المبعوثين إلى أوروبا لنيل الدرجات العلمية، وهذا إن كان مقبولا في المجال التجريبي كالطب والصيدلية فليس مقبولا في مجال الدراسات الإسلامية.

كما كان للاستشراق وجود فعلى في الحياة الثقافية العربية، فقد نشرق مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق في مجلدها السابع عام ١٩٢٧م أسماء ثمانية وثلاثين عضواً من المستشرقين، كانوا يشاركون في الكتابة والتأليف والنشر، وتخطيط المناهج والتعليم الجامعي، ويكتبون مجلات الرسالة والهلال والمكشوف. (١)

ويبدو لي أن اتصال المستشرقين المباشر بالتراث الإسلامي، وقربهم من النخبة المثقفة له أثر بعيد في تقليص دور الثقافة الإسلامية؛ هذا إذا أدركنا أنهم يعملون على عزل المسلمين عن تاريخهم المجيد من خلال عرضه بصورة مشوهة، تَعْلَى من شأن القوميات البائدة.

يقول الدكتور محمد خليفة حسن: " اتجه المتخصصون في التاريخ الحديث من المستشرقين إلى عزل تواريخ الشعوب العربية عن تاريخها الإسلامي، ومعالجة تاريخ كل شعب عربي وإسلامي داخل إطار قومي عرقي، وقد كونوا جماعات تدعو إلى إحياء القوميات، ونجحوا في عدة دول عربية إسلامية، ومن هذا بعثهم الفرعونية في مصر، والبربرية في الشمال الإفريقي والفينيقية في لبنان وسوريا، والكنعانية في فلسطين، والآشورية في العراق، والفارسية في إيران، والقومية التركية في تركيا. (٢)

٣- العولمة:

العولمة ترجمة للكلمة الانجليزية (Globalization) من الكلمة (Global) العالم أو الكون أو الكوكب الأرضي، ومن ثم سماها البعض الكوكبية أو العالمية.

(١) الاستشراق في الفكر العربي: د. محسن جاسم ص ١٨ الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٢م.

(٢) آثار الفكر الاستشراقي د. محمد خليفة حسن ص ٤١ (يتصرف).

وهي كما تحدد المعاجم اللغوية: إكساب الشيء طابع العالمية يجعل نطاق الشيء أو تطبيقه عالمياً.

وهذا المدلول اللغوي قد يعبر عن بعض خصائص العولمة، ولكنه لا ينسجم في عمقه مع دلالة اللفظ ومفهوم المصطلح كما يشاع في عالم اليوم (١)، فالعولمة غير العالمية، لأن العالمية تعني: الارتقاء بالخصوصية إلى مستوى عالمي، بينما تعني العولمة: هيمنة النظام العالمي الجديد. (٢)

ومن الباحثين من يرى أن العولمة ليست مذهباً فكرياً، بل هي نظام سياسي عالمي أفرزته المتغيرات الدولية والمناخ السياسي العالمي في أعقاب انتهاء الحرب الباردة، بعد سقوط حائط برلين وتوحد ألمانيا، وانهيار الاتحاد السوفيتي، وفيما يستجيب لتطلعات القوة التي خرجت منتصرة من الحرب الباردة أمريكا وأوروبا. (٣)

والواقع أن مدلول العولمة لا يقف عند حد الجانب السياسي، إنه يعنى التدخل الواضح في أمور الاقتصاد والاجتماع، والسياسة والثقافة والسلوك، دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة، أو الانتماء إلى وطن محدد، أو لدولة معينة، ودون الحاجة إلى إجراءات حكومية. (٤)

يقول الدكتور عمر الأشقر: إن حقيقة العولمة أن الغرب يريد أن يفرض نظام حياته على العالم كله، بل إن الذي يريد أن يفعل ذلك هو أمريكا، وهذا نابع من نظرة استعلائية فوقية، وبخاصة بعدما أصبحت أمريكا القطب الأوحـد بعد سقوط الاتحاد السوفيتي. (٥)

يقول الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب: لقد أنقذنا أوروبا، وتغلبنـا على الشلل، ووصلنا إلى القمر، وأضأنا العالم بثقافتنا... والآن، ونحن على مشارف

(٣) أساسيات الثقافة الإسلامية ص ٣٤٧ (مرجع سابق).

(٤) العولمة وخصائص دار الإسلام ودار الكفر. د. عابد السفيناني ص ١٨ دار الفضيلة.

(١) الوجيز في الثقافة الإسلامية: د. همام سعيد وآخرون ص ١٨٨ دار الفكر عمان ٢٠٠٢م.

(٢) العولمة وخصائص دار الإسلام ص ١٧.

(٣) انظر نحو ثقافة إسلامية ص ١٥٨ - ١٥٩.

قرن جديد نسأل: لمن سينسب هذا العصر؟! .. إنني أؤكد أنه سيكون عصرًا أمريكيًا آخر ... (١)

ويقول الرئيس كلينتون : إن أمريكا تؤمن أن قيمها صالحة لكل الجنس البشري، وإننا نستشعر أن علينا التزاماً مقدساً لتحويل العالم إلى صورتنا. (٢)
ويتمثل خطر العولمة على العالم الإسلامي فيما يلي:

١- العولمة امتداد للهمجية الشرسة من دول الغرب على بلاد المسلمين، ولما كان الغرب المحتل - دائماً - يفرض لغته وثقافته في مستعمراته أرادت أمريكا بعد سقوط الشيوعية أن تتفرد بزعامة العالم باسم النظام العالمي الجديد وأن تفرض مع عولمة " الإنتاج " الاتجاه الرأسمالي والثقافة الأمريكية. (٣)

٢- ترتبط أمريكا بعلاقات مع كثير من الدول الإسلامية، وهي علاقات لا تتسم بالندية، وإنما علاقة غالب بمغلوب، والمغلوب دائماً مولع بتقليد الغالب، يستقى منه ثقافته وعاداته وتقاليده.

٣- إن أخطر ما في العولمة تأصيل المفكرين في الغرب لها، وكأنها قدر محتوم، ففي تسعينيات القرن العشرين، يكتب " فرنسيس فوكوياما " وهو نائب مدير مجموعة التخطيط السياسية بوزارة الخارجية الأمريكية كتاباً بعنوان " نهاية التاريخ والإنسان الأخير " يرى خلاله أن الإسلام فقد بريقه وجاذبيته خارج المناطق الإسلامية في هذا العصر، وأصبح ممكناً اختراق العالم الإسلامي

(٤) مجلة العالم الإسلامي عدد ١٩٩٢ نقلاً عن نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص ١٥٩.
(٥) مجلة البيان العدد (١٢٩) ص ٤٦ مقال بقلم: محمد إسماعيل بعنوان " هويتنا الإسلامية ".
(٦) العولمة وخصائص دار الإسلام ص ٢٦ - ٢٧ (بتصرف).

بالأفكار التحررية، والقيم والمبادئ الغربية، التي لا بد أن تسود العالم الإسلامي وتقوده. (١)

وبعد ثلاث سنوات، وبالتحديد في ١٩٩٦م يطرح " صموئيل هنتجتون " الأستاذ بجامعة هارفاد الأمريكية رؤية أشد تطرفاً من رؤية " فوكو باما " وذلك من خلال كتاب بعنوان " صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي " ويرى فيه أن الحضارة الأمريكية يجب أن تهيمن على العالم، وأن تسيطر على كل الحضارات بما في ذلك الحضارة الإسلامية، لأن الحضارة الأمريكية هي الحضارة المتفوقة، والحضارة عند " هنتجتون " تقوم على الثقافة والدين وليس على التكنولوجيا فحب. (٢)

لا شك أن هذه الرؤى المتطرفة، التي تقدم إلى رجال الساسة في أوروبا، وهي تواكب - في نفس الوقت - قلوباً حاقدة تجاه الإسلام وأهله، كل ذلك من شأنه أن يشحذ الهمم، ويفعل التخطيط المحكم، لفرض العولمة على العالم الإسلامي، بشتى الوسائل الممكنة.

والسؤال الذي يطرح نفسه !!

هل يمكن أن تواجه الثقافة الإسلامية هذه التحديات ؟

وأقول: لا يخالجنى أدنى شك في أن الثقافة الإسلامية قادرة - بإذن الله تعالى - على مواجهة تلك التحديات، والتغلب عليها، وذلك للأسباب التالية:

١- يتسم الإسلام بخصائص عدة تؤهله للبقاء، فهو الدين الإلهي، الذي يصلح النفوس والقلوب، كما أنه دين يناسب الفطرة، ويوازن بين الروح والمادة، وقد حكم هذا الدين عالماً واسعاً، على مدى ألف عام،

(١) انظر نهاية التاريخ وخاتم البشر : فرانسيس فوكا ياما ص ٩٥ - ٩٦ نشر مركز الإنماء القومي بيروت ترجمة د. فواد شاهين.

(٢) انظر نحو ثقافة إسلامية ص ١٦٧ - ١٦٨ وكتاب صدام الحضارات ترجمة د. صلاح الشايب.

ودخلت فيه شعوب مختلفة، وأجناس متنوعة، فأتلقت تحت لوائه، وهو صالح الآن ليقوم بدوره. (١)

٢- إن الصحوّة الإسلاميّة، والتي تنتشر في أرجاء المعمورة - اليوم - حصن منيع أمام أخطر التيارات المعادية، فقد نهض المتقفون يدرسون حضارة الغرب وثقافته في ضوء تعاليم الإسلام، وينشئون المدارس والمعاهد والجامعات لعرض رسالة الإسلام بالصورة التي أرادها الله - تعالى - واستطاع العلماء أن يكشفوا عوار الحضارة الغربية، من خلال عرضهم لأساليب الاستشراق ومخططاته، ووسائل التنصير وأهدافه، وأن يفضحوا كل التيارات المعادية.

٣- أثبت التاريخ أن الشخصية الإسلامية تحتفظ بمقوماتها، حتى في ظل الأخطار التي تحيط بها، ولا تذوب الشخصية أو تتعدم مهما واجهت من صعوبات، فقد استمرت الحروب الصليبية زهاء قرنين من الزمان، وما نالت من عزيمتها، وجاء التتار ولم يتمكنوا من القضاء عليها، وصمدت أمام كل التيارات الوافدة.

٤- أثبت الوحي أن الإسلام سيبقى ظاهراً منتصراً، إلى أن تقوم الساعة، وذلك وعد الله - تعالى - الذي لا يتخلف قال تعالى : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) (٢)، وعن تميم الداري - رضى الله عنه - قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: " ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر. (٣)

(٣) نحو ثقافة الأُمّة أصيلة ص ١٨٤ - ١٨٥ (بتصرف).

(١) سورة التوبة الآية (٣٣)

(٢) أخرجه أحمد ١٠٣/٤ رقم (١٦٩٩٨) والحاكم في المستدرک ٤٧٧/٤ رقم (٨٣٢٦) وقال صحيح على شرط الشيخين.

المبحث الرابع

دور الثقافة الإسلامية في التقريب بين الشعوب

إذا كانت الثقافة الإسلامية تتسم بأمور تميزها عن غيرها من الثقافات الأخرى، وتحفظ بقاءها في عصر العولمة، فإن لها أيضاً مقومات تجعلها تعيش في تناغم وتواصل مع غيرها من الثقافات الأخرى في إطار من التعاون السلمي يضيف ويثري البناء الحضاري الإنساني.

وأهم تلك المقومات الحرية، والتفاعل الحضاري، ونشر القيم الفاضلة:

١- الحرية:

ويقصد بالحرية: قدرة الإنسان على فعل الشيء أو تركه بإرادته الذاتية مع احترام حقوق الآخرين في حدود الشريعة الإسلامية.

والحرية بهذا المعنى تعلي من قدر الإنسان، بعيداً عن جنسه أو لغته أو دينه .. ولا غرو في هذا، فقد عني القرآن الكريم بالإنسان عناية بالغة، حيث وجه خطابه للناس عامة تسع عشرة مرة في صيغة " يا أيها الناس " أما كلمة " الناس " فقد ذكرت في القرآن الكريم حوالي مائتين وإحدى وأربعين مرة، وهذا من أبلغ الدلائل على اهتمام القرآن الكريم بالإنسان كما أن الإنسان في ضوء الثقافة الإسلامية يحظى بحقوق تفوق بكثير تلك الحقوق التي منحتها له هيئة الأمم المتحدة في العصر الحاضر، ومن أهم الحقوق التي راعتها الشريعة الإسلامية ما يلي:

أ- حق الحياة:

وهذا الحق في ظل الثقافة الإسلامية مصون ومقدس، لا يجوز لأحد أن يتعدى عليه قال تعالى: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) (١) كما أن هذا الحق ليس وفقاً على حفظ النفس البشرية، بل إن

(١) سورة المائدة الآية (٣٢).

له أثاراً اجتماعية حيث تحول بين الأفراد والجماعات أن يقتلوا أنفسهم أو يقتلوا غيرهم بأنواع الممارسات التي تضر بالصحة وتؤدي إلى تدميرها كتنسيير إدمان الخمر والمخدرات، وغيرها مما يهلك الإنسان، فالإسلام في مثل هذه الحالات يعتبر من يتسببون في الإصابة المؤدية للقتل مشاركة فيه يستوجب العقاب الشديد.

ب- حق الإنسان في الاعتقاد:

منحت الشريعة الإسلامية الإنسان الحق الكامل في اختيار عقيدته دونما إكراه من احد قال تعالى: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (١)، فالإسلام يعنى بعرض حقائقه على الغير، ولا يجبر أحداً على قبوله، قال تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) (٢) ولهذا عاش في كنف الدولة الإسلامية يهود ونصارى وكفار ومجوس آمنين لم يتعرض لهم أحد بسوء، لأن المسلمين يدركون أن الاختلاف في العقائد، والتباين في المذاهب من حكم الله - تعالى - قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) (٣)، وقال جل وعلا : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (٤).

وفي ظل سيادة الدولة الإسلامية، وريادة الثقافة يعيش غير المسلمين آمنين على معتقداتهم، مطمئنين لحسن معاملتهم يقول الله تعالى : (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (٥).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٦).

(١) سورة الكهف الآية (٢٩).

(٢) سورة هود الآية (١١٩).

(٣) سورة يونس الآية (٦٩).

(٤) سورة الممتحنة الآية (٩ - ١٠).

ويطبق الرسول - ﷺ - تلك المثل على أرض الواقع عندما يعقد معاهدة مع قبيلة تغلب سنة ٩هـ - أباح لهم فيها البقاء على نصرانيتهم، وصالح نجران، وتركهم أحراراً في دينهم، ووجه عماله الى اليمن لأخذ الجزية ممن أقام على نصرانيته، وكذلك فعل مع النصارى واليهود جميعاً في بلاد العرب، وكان المجوس منبثين في بقاع شتى من جزيرة العرب، منهم مجوس نجران وهجر وعمان، والبحرين وهؤلاء جميعاً بقوا على دينهم ودفعوا الجزية. (١)

ج- حق المساواة:

تدعو الثقافة الإسلامية إلى المساواة بين الناس على اعتبار أنهم خلقوا جميعاً من نفس واحدة قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (٢)

والتساوى بين أفراد الأمة في الحقوق والواجبات مبدأ أصيل في الإسلام لا فرق بين شريف أو وضيع، الجميع أمام القانون سواء، فعن عائشة - رضى الله عنها - إن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت، فقالوا من يكلم فيها رسول الله - ﷺ - فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله - ﷺ - فكلمه أسامة فقال رسول الله - ﷺ - : أتشفع في حد من حدود الله؟! ثم قام فاختطب فقال: أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. (٣)

والمساواة تمتد لتشمل غير المسلمين في ضوء المجتمع الإسلامي، يبدو ذلك من خلال النص القرآني الذي يوجه الرسول - ﷺ - إلى تحرى الحق

(٥) سماحة الإسلام: محمد احمد الحوض ص ١٧٤ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٦) سورة النساء الآية (١)

(١) أخرجه مسلم ك الحدود ب النهي عن الشفاعة في حد من الحدود ٢٦٣/٤.

ودفع الظلم، بصرف النظر عن عقيدة المتصف بهذا أو ذاك، فالكل أمام الحق سواء، يقول الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا) (١)

يقول ابن عباس : نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له طعمة من بني ظفر بن الحارث، سرق درعاً من جار له، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينثر من خرق الجراب، حتى انتهى إلى داره، ثم خبأها عند يهودي، فالتصت الدرع عن طعمة فحلف بالله ماله بها من علم، فلما حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي، فأخذه فقال اليهودي دفعها إلى طعمة. قال البغوي: جاء بنو ظفر قوم طعمة إلى رسول الله، وسألوه أن يجادل عن صاحبهم طعمة، فهم الرسول أن يعاقب اليهودي، ويقطع يده، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية. (٢)

د- حق الإنسان في صيانة عرضه وماله :

أحاطت الشريعة الإسلامية الإنسان بسياج منيع، وحرمت ماله ودمه وعرضه، فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - خطب يوم النحر فقال: يا أيها الناس أي يوم هذا ؟ فقالوا: يوم حرام، قال وأي بلد هذا ؟ قالوا: بلد حرام ، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، فأعادها مراراً ثم رفع رأسه فقال: اللهم هل بلغت ؟ .. فليبلغ الشاهد الغائب لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض. (٣)

ولصيانة المجتمع وحفظ حقوق أفراد، شرع القصاص، وأقيمت الحدود، ووضعت الأسس والقواعد التي تحمي المجتمع، وتحول دون تدميره، كما أن

(٢) سورة النساء الآية رقم (١٠٥ - ١٠٧)

(٣) تفسير الخازن: علاء بن محمد الشهير بالخازن ٥٩٣/١ دار الفكر بيروت ١٣٩٦هـ - ١٩٧٩م.

(٤) أخرجه البخاري ك الحج ب الخطة أيام منى ٦٧٠/٣ رقم (١٧٣٩).

حقوق أهل الذمة مصونة كحقوق المسلمين، يقول الرسول - ﷺ - من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن رائحتها ليوجد من سيرة أربعين عاماً^(١)، ويقول - ﷺ - : " من ظلم معاهداً، أو انتقصه حقاً، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة".^(٢)

لقد سمى الإسلام المواطنين من غير المسلمين الذين يعيشون في دار الإسلام أهل الذمة " حيث لا يوجد تعبير عن العهد والضمان والوفاء مثل كلمة " الذمة " ولهذا يقول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : " إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودمائهم كدمائنا " .^(٣)

والمستأمنون وهو الذين دخلوا ديار المسلمين من كفار وغيرهم لفترة من الزمن بغرض السياحة أو العلم لهم نفس الحقوق بموجب عقد الأمان ولو أن أحداً من المسلمين أجار مشركاً وجب على جماعة المسلمين احترام هذا العهد، فقد أجازت أم هانئ - رضي الله عنها - مشركاً، وقال الرسول - ﷺ - : " أجرنا من أجرت يا أم هانئ " .^(٤)

هـ - حق الإنسان في نصرة إخوانه له :

كفلت الشريعة الإسلامية للإنسان حقه في نصرة أفراد المجتمع له وهذا ما يعرف لدى أهل العلم "بالتكافل الدفاعي" يقول الله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة) ^(٥) ويقول الرسول ﷺ : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى " ^(٦) ويقول ﷺ : " المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله " ^(٧)

(١) أخرجه البخاري ك الإيمان ب إثم من قتل معاهداً ٩٩/٤ رقم (٣١٦٦).

(٢) الترمذي ١٨٧/٢ ك الخراج ب تعشير أهل الذمة رقم (٣٠٥٢) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري ك الإيمان ب الصلاة في ثوب واحد ٨١/١ رقم (٣٥٨) ..

(٤) المغنى لابن قدامة ٥٥/٩ دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

(٥) سورة الحجرات الآية (١٠).

(٦) مسلم ك البر والصلة ب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ١٩٩٩/٤ رقم (٢٥٨٥).

(٧) الترمذي ك البر والصلة ب ما جاء في شفقة المسلم على أخيه ٣٢٥/٤ رقم (١٩٢٧) وصححه الألباني.

وقد صنف العلماء مؤلفات عدة في هذا الجانب مواطنها كتب الفقه، ولغير المسلمين المقيمين في المجتمع الإسلامي حقوق مماثلة في الدفاع عنهم ضد العدوان الداخلي والخارجي.

يقول الإمام القرافي: "إن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكرّاع والسلاح، ونموت دون ذلك صوناً لمن هو في ذمة الله - تعالى - وذمة رسول الله - ﷺ - فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة. (١)"

ومن الشواهد التاريخية على حماية أهل الذمة من العدوان الخارجي موقف شيخ الإسلام ابن تيمية حينما اجتاحت التتار بلاد الشام، وذهب الشيخ يكلم كبيرهم (قطلو شاه) في إطلاق سراح الأسرى، فسمح القائد التتري بإطلاق أسرى المسلمين، ولم يسمح بإطلاق أسرى أهل الذمة فقال له شيخ الإسلام: لا نرضى إلا بإطلاق سراح جميع الأسرى من اليهود والنصارى، فهم أهل ذمتنا، فلما رأى القائد التتري إصرار الشيخ أطلقهم له. (٢)

و- حق إبداء الرأي والتفكير:

منح الله - تعالى - الإنسان العقل، وجعله مناط التكليف، ودعا الناس إلى التدبر والتفكير يقول جلا وعلا: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضُرْبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) (٣)

وما أكثر الآيات القرآنية التي ختمت بمخاطبة العقل، واستنهاض همته في إدراك الرشد كقوله: "لعلكم تعقلون"، لعلكم تذكرون، لأولى الأبواب، لأولى النهى ... الخ"

(٨) الفروق: القرافي ٦/٥ ت خليل منصور دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨.

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية ٦١٧/٢٨، مكتبة ابن تيمية ت عبد الرحمن النجدى.

(٢) سورة العنكبوت الآية (٤٣).

فالثقافة الإسلامية لم تقل " أطع وأنت أعمى " ولكن منهجها كان يقوم على الحجة والافتناع، ومواجهة الرأي الآخر بالدليل والبرهان (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) (١).

ووجه الرسول - ﷺ - أصحابه إلى إبداء الرأي وحرية الفكر فيما لا نص فيه إعمالاً لقوله تعالى: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) (٢)، وطبق ذلك عملياً في أكثر من واقعة، كنزوله عن رأي الحباب بن المنذر - رضى الله عنه - في غزوة بدر، والاستماع لآراء الصحابة - رضى الله عنهم - في أسرى تلك الغزوة، والاستجابة لسلمان الفارسي - رضى الله عنه - في حفر الخندق حول المدينة.

وقد أمر الله - تعالى - مجادلة المخالفين بالحسنى، وعرض القرآن الكريم نماذج وفيرة للحوار بين الحق والباطل، وساق أصحابها الأدلة والبراهين لتظهر الحقيقة ويستبين سبيل المجرمين.

واستقبل الرسول - ﷺ - وفد نجران في مسجده، وأدوا صلاتهم فيه، وجادلهم في أمر الدين، وألزمهم الحجة وأقام عليهم الدليل، ومنذ ذلك الحين، والثقافة الإسلامية تسع كل الآراء المتباينة، ولا تجد غضاضة في المناظرات، التي يحضرها علماء الإسلام في مواجهة الملاحدة والزنادقة والمجوس الباطنية وغيرهم، وربما عقد بعض تلك المناظرات في حضور خليفة المسلمين.

والحق أن الثقافة الإسلامية لم تصدر فكراً، أو تخدم رأياً، أو تحجر على قلم، كما فعلت الثقافات الأخرى، وفي هذا وغيره من الحقوق التي سلف ذكرها تقرب بين الشعوب الإنسانية، وتعاون فيما بينها لإرساء القيم العليا.

(٣) سورة الأنفال الآية (٤٢).

(٤) سورة آل عمران الآية (١٥٩).

ثانياً: التفاعل الحضاري:

استطاعت الثقافة الإسلامية أن تقدم للبشرية ثروة حضارية هائلة، في شتى العلوم والمعارف الإنسانية والتطبيقية، أدت إلى تمدن الإنسان ورفيحه، بما يناسب وصفه كإنسان استخلفه الله - تعالى - في هذه الأرض.

والثقافة الإسلامية في هذا الجانب لم تقف بمعزل عن غيرها من الثقافات، ولكنها - مع احتفاظها بثوابتها - أطلعت على كل الثقافات، فأخذت منها وردت، وبحثت ونقحت وطورت، وأضافت وحذفت، ثم قدمت للإنسانية تراثاً عريقاً متكاملًا يستفيد منه الناس على مر العصور.

يقول الدكتور أحمد فؤاد باشا: " أنشأ هارون الرشيد بيت الحكمة، وبلغ النشاط فيه ذروته في عهد المأمون، حيث ازدهرت الترجمة لنقل العلوم من اللغات الأجنبية إلى العربية، وقد حوى بيت الحكمة مؤلفات مكتوبة في الأصل بلغات مختلفة، ومن أهمها الكتب اليونانية والفارسية والهندية والقبطية والآرامية، كما ضم بيت الحكمة مؤلفات لأفلاطون وأرسطو وسقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس وغيرهم ، حتى أصبح بيت الحكمة أول جمعية علمية إسلامية. (١)

وقد انطلقت الثقافة الإسلامية نحو رسم صورة حضارية معتمدة على أسس ثلاثة هي كالتالي:

١- العلم:

فالإسلام يدعو إلى العلم بشقيه الديني والدنيوي قال تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (٢)، وقد أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - وهو قدوة المسلمين أن يطلب المزيد من العلم قال تعالى: (وقل ربي

(١) موسوعة الحضارة الإسلامية: مجموعة من العلماء ص ٥١٣ ط المجلس الاعلى للشئون الإسلامية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

(٢) سورة المجادلة الآية (١١)

زدني علما (١). وعن أبي أمامة الباهلي قال: ذكر لرسول الله - ﷺ - رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال رسول الله - ﷺ - : إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير. (٢)

والإسلام يوجه أنظار الناس إلى البحث في هذا الكون، والاستفادة منه، والتتقيب عن أسرارهِ قال تعالى: (فَلْيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٣)، كما يوجه القرآن الناس إلى معرفة الفلك وما فيها من أسرار يقول تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) (٤).

ويدعو الإسلام الناس إلى اكتشاف نواميس الله - تعالى - في كتابه المنظور يقول تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (٥).

يقول الدكتور عبد الحليم محمود: وكانت نتيجة ذلك كله أن اندفع المسلمون إلى البحث في جميع ميادين الحياة، روحية كانت أو عقلية، أو مادية ، ونشأ عن ذلك الحضارة الإسلامية التي أنتجت أمثال جابر بن حيان في الكيمياء، وابن الهيثم في الطبيعيات، و الرازي في الطب، وابن سينا في الطب وكذلك الفلسفة، والغزالي في الجانب الروحي، وابن رشد في الفلسفة

(٣) سورة طه الآية (١١٤).

(٤) أخرجه الترمذي ك العلم ب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ٥٠/٥ رقم (٢٦٨٥) وصححه الالباني.

(٥) العنكبوت الآية (٢٠).

(٦) سورة الواقعة الآية (٧٥ - ٧٦).

(١) سورة البقرة الآية (١٦٤).

العقلية، وابن خلدون في الاجتماع والتاريخ، الخوارزمي في الجبر وكثيرون غيرهم. (١).

٢- قضية الاستخلاف:

لقد خلق الله - تعالى - الإنسان بيده، وأوجده على الأرض بقدرته، وجعله مركب من روح وجسد، واستخلفه في هذا الكوكب، وأوضح أن ذلك جعلاً إلهياً قال تعالى: (إني جاعل في الأرض خليفة) (٢) وقال تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (٣)، ومن صور الاستخلاف عمارة الكون قال تعالى: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (٤) ومن حكمة الله - تعالى - أن سخر هذا الكون للإنسان قال تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَثَّةً) (٥).

إن التناغم العجيب بين الاستخلاف وتسخير الكون لخدمة الإنسان كان دافعاً قوياً نحو هذا البناء الحضاري الذي أنتجته العقول المسلمة، وعم نوره أرجاء المعمورة.

٣- التمكين:

وعد الله - تعالى - الأمة الإسلامية بالتمكين في الأرض، إن هي سارت واستقامت على منهج الله - عز وجل - قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (٦).

(٢) هدية مجلة الأزهر بحث بعنوان " موقف الإسلام من العلم والفن والفلسفة " د. عبد الحليم محمود عدد صفر ١٤٢٤هـ ص (١٤٧).

(٣) سورة البقرة الآية (٣٠).

(٤) سورة يونس الآية (١٤).

(٥) سورة هود الآية (٦١).

(٦) سورة الجاثية الآية (١٣).

(٧) سورة النور الآية (٥٥).

والتمكين يستدعى الريادة والقيادة للأمة التي يناط بها نشر الإسلام، وحفظ الدعوة، وهذا لا يتحقق إلا بالقوة، التي تقوم على العلم والبحث قال تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) (١).

يقول الدكتور عبد الحليم محمود: "الاستطاعة لا تكاد تحد، وكلما وصل الإنسان إلى حد من الاستطاعة تفتحت أمامه آفاق استطاعات جديدة، يجب عليه أن يلجها، فهو في كل آونة مترق في عالم الطبيعة، حتى يكون دائماً في القمة، وهكذا أراد الله - تعالى - للمسلمين، لأنهم أصحاب رسالة أبدية، تحتاج إلى قوة تسندها، كي يكون لها من التأثير والنفوذ ما يواكب مكانتها. (٢)

ومن خلال الأسس السابقة انطلق المسلمون، في ميدان التأليف والتصنيف والترجمة والإبداع، ويوم أن كانت أوروبا غارقة في ظلام الجهل كانت العواصم العربية تزخر بآلاف الكتب في فروع العلم المختلفة، فدار الحكمة ببغداد كان يوجد بها مليون كتاب، ومكتبة الحاكم بأمر الله في القاهرة كانت تحوي مليون وستمئة ألف كتاب، ومكتبة غرناطة كان يوجد بها ستمائة ألف مجلد، وبعد خمسين عاماً من دخول المسلمين الأندلس كانت اللغة العربية هي الوسيلة الوحيدة لنشر العلوم والمعارف. (٣)

ولقد ذكر الكتاب الغربيون فضل الحضارة الإسلامية على أوروبا وما أنتجته العقول العربية:

تقول المستشرقة الألمانية زيجريد هونكة: "إن تلك الحضارة الزاهرة التي غمرت بأشعتها أوروبا عدة قرون جعلها تعجب أشد العجب، إذ هي لم تكن امتداداً حضارياً لبقايا حضارات غابرة، أو لهياكل حضارية محلية على قدر من الأهمية، أو أخذاً لنمط حضاري موجود، أو تقليداً ينسج على منواله

(١) سورة الأنفال الآية (٦٠).

(٢) موقف الإسلام من الفن والعلم ص ١٩٠ - ١٩١ (بتصرف) مرجع سابق.

(٣) الحضارة الإسلامية بأقلام غربية: عبد التواب يوسف ص ٧٨ الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٣م.

المعهود، كما نعرف في الأقطار الأخرى، مهد الحضارات في الشرق، إن العرب بثقافتهم هم الذين أبدعوا هذه الروعة الحضارية إبداعاً. (١)

ويقول المستشرق الفرنسي جو ستاف لوبون:

ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب إلا بتصور حالة أوربا حين أدخلوا الحضارة إليها، إذا رجعنا إلى القرن التاسع والعاشر من الميلاد، حين كانت الحضارة الإسلامية في أسبانيا ساطعة جداً رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها أناساً متوحشون، يفخرون بأنهم لا يقرعون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين، الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم، ليكشطوا كتب الأقدمين بخشوع، ودامت همجية أوربا حتى القرن الحادي عشر والثاني عشر، حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم، فولوا وجوههم شطر العرب، الذين كانوا أئمة وحدهم، ودخلت العلوم أوربا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا، وذلك أن مكتباً للمترجمين في طليطلة بدأ منذ ١١٣٠م بنقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون، ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة. (٢)

لقد سطر المسلمون في الجانب النظري حضارة عريقة، وتراثاً إنسانياً، أنار للناس طريقاً، وفتح أفاقاً عالية أمامها. فابن خلدون الذي عاش بين مصر وتونس في المدة من ١٣٣٢ - ١٤٠٦م يعتبر نسيج وحدة في تاريخ الفكر الإنساني، ومقدمته تعد واحدة أشهر الأعمال الخالدة في علم الاجتماع، وصاحب نظريات باهرة في هذا العلم حول قوانين العمران، ونهوض الدول وسقوطها، لقد استفاد الغرب والشرق على السواء من فكره يقول أرنولد توينبي المؤرخ الانجليزي: ابتكر ابن خلدون وصاغ فلسفة للتاريخ هي بدون شك أعظم ما توصل إليه الفكر البشري، في مختلف العصور والأمم، ويقول

(٤) شمس العرب تسطع على الغرب: زبجريد هونكة ص ٢٢٩ ط دار الجيل ت فاروق بيصرون ط (٣) ١٤١٢هـ - ١٩٩٣م.

(١) حضارة العرب : جو ستان لوبون ص ٥٦٦ - ٥٦٧ (بتصرف) ت عادل زعيتر ط مكتبة الاسرة ٢٠٠٠م.

إيف لاکوست الأستاذ بجامعة السوربون: إن مؤلف ابن خلدون يمثل ظهور التاريخ كعلم، وهو أروع عنصر فيما يمكن أن يسمى بالمعجزة العربية، حيث اتسم بسعة الاطلاع وغزارة العلم وكان لديه قدرة على الاستقراء والاستنتاج، موفقاً في ضبط العلل والعوامل، وإقرار الأصول والأحكام، وإخضاع الظواهر الاجتماعية للقوانين من خلال ربط الأسباب بالمسببات. (١)

وتعد مؤلفات ابن رشد وابن سينا والفارابي رافداً أساسياً للفكر الغربي، فقد نقل المستشرق الايطالي جيرار الكريموني الايطالي (١١١٤ - ١١٨٦) ما يقرب من تسعين عملاً من العربية إلى اللاتينية، وتأثر القديس توما الأكويني اكبر الفلاسفة الأوربيين في القرن الثالث عشر حيث اخذ عن ابن سينا والفارابي وابن رشد، بأفكارهما في مختلف القضايا، كما ترجم ميخائيل سكوت أعمال ابن رشد في الفترة الواقعة بين ١٢٢٨ - ١٢٣٥. (٢)

وتتواصل إسهامات المسلمين في رفعة الحضارة الإنسانية، عبر جهودهم في فروع العلم المختلفة كالجغرافيا والفلك.

ويعد كتاب " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " للشريف الإدريسي من أجل كتب الجغرافيا، حيث ألف هذا الكتاب بناء على طلب الملك روجر الثاني ملك صقلية وإيطاليا، وتعلمت منه أوروبا الجغرافيا في القرون الوسطى، وترجم إلى اللاتينية، واستمرت تنسخه أوروبا لأكثر من ثلاثة قرون، ولليبروني كتاب " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة " الذي يعتبر مرجعاً أساسياً في علم الجغرافيا، حيث كان المؤلف ينظر في بحثه هذا بعقل الفيلسوف الرياضي العارف بمناهج البحث عند أرسطو وأفلاطون وبطليموس وجالينوس، فهو لماح في نقده، عميق في بحثه، معتدل في قصده منجز للحقيقة التاريخية ما وسعه ذلك، كما ألف المقدسي كتاب " أحسن التقاسيم في

(٢) انظر الحضارة الإسلامية بأقلام غربية ص ٢٧ مرجع سابق، وانظر نظرات في الفكر المنهجي عند ابن خلدون: علال البوزيدي مجلة الأمة العدد ٣٨ سنة ١٤٠٤هـ.

(٣) دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية ص ٢٩ هاني المبارك، د شوقي أبو خليل ط دار الفكر بيروت ت ١٤١٧هـ - ١٩٩١م.

معرفة الأقاليم " وقد قام المستشرقون من أمثال: جابر بن فران، وكراتشكوفسكي بترجمة وتحقيق أربعين مؤلفاً لعالم الجغرافيا شهاب الدين أحمد الجندي الملقب في القرن الخامس عشر الميلادي بأسد البحر، وعلى رأس مؤلفاته في هذا العلم كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد. (١)

ويذكر التاريخ آثار المسلمين في علم الفلك، حيث أجريت أول أرصاد علمية في الإسلام في عهد الخليفة المأمون (٢١٨هـ - ٨٣٣م) في دمشق من أرض الشام، كما أنشأ البتاني - وهو من قادة هذا العلم - مرصداً آخر ببلاد الشام ولموسى بن شاكر وأولاده جهود مباركة في علم الفلك من خلال مؤلفاتهم القيمة، وتجاربهم الحية في هذا المجال. (٢)

ودور المسلمين في العلوم التجريبية كالطب والصيدلة والبيطرة لا يقل عن دورهم في العلوم الإنسانية، وكفى في هذا المجال أن تراث المسلمين في تلك العلوم ترجم لأكثر من مرة، ومؤلفاتهم درست إلى وقت قريب في معظم الجامعات الأوروبية، بل إن المنهج التي تقوم عليه العلوم التجريبية إسلامي في أصله".

يقول الدكتور عبد الحليم محمود: إن المنهج القائم على التجربة والملاحظة منهج إسلامي، وقد اعترف علماء أوربا بذلك، حيث اثبت " بيوفلت " في كتابه بناء الإنسانية ذلك في قوله: ليس لروجير بيكون ولا لفرنسيس بيكون الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجير بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوربا المسيحية. (٣)

أما عن العلوم التجريبية نفسها، وسبق المسلمين فيها فلندع سديو المؤرخ الفرنسي يحدثنا قائلاً: إن إنتاج العرب وأفكارهم الغزيرة، ومخترعاتهم الفنية

(١) موسوعة الحضارة الإسلامية ص ٥٥٢ (يتصرف)

(٢) السابق ص ٦٦٧ و انظر شمس الإسلام تسطع على الغرب ص ١٢٢ .

(٣) موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة ص ١٨٦ .

تشهد بأنهم أساتذة أهل أوربا في كل شيء فقد أفردت جامعة " برنستون " الأمريكية للطبيب العربي الرازي قاعة كاملة، وضعت فيها مؤلفاته وأطلقت عليها اسمه، ونقلت أوربا عن الزهراوي أدواته الجراحية، وسبقهم ابن النفيس في اكتشاف الدورة الدموية، وترجمت مؤلفات مؤسس علم الكيمياء جابر بن حيان، وساعد البيروني نيوتن على اكتشاف الجاذبية، وأعانه الحسن بن الهيثم في الضوء والبصريات. (١)

وقد ترك ابن سينا مؤلفات عدة في الطب والفلسفة، ومن أبرز مؤلفاته في الطب كتاب القانون، وأرجوزة ابن سينا الطبية، وموسوعة الشفاء الطبية، ولكتاب القانون المكانة العليا في أوربا حيث طبع ست عشرة مرة حتى عام ١٥٠٠م، وفي القرن الذي تلاه زاد عدد الطباعات للكتاب فبلغت العشرين، وظل كتاب القانون يطبع سنة بعد سنة، حتى النصف الأول من القرن السابع عشر، وبذلك يكون هذا الكتاب العربي أكثر كتاب طبي درسه طلاب المعرفة في تاريخ العالم. (٢)

وتعد مؤلفات جابر بن حيان والخوارزمي في الرياضيات، ومؤلفات على بن العباس في الصيدلة وكتب أبي حنيفة الدينوري في علم النبات لبنة في هذا الصرح العلمي، الذي أبدعه العقل الإسلامي. والواقع أن التفاعل الحضاري بين المسلمين وغيرهم، وتبادل المعارف فيما بينهم هدف مزدوج دعت إليه الثقافة الإسلامية لبناء المؤسسات العلمية، التي تعود بالنفع على الإنسان من جهة، وإطلاع غير المسلمين على عقول وفكر المسلمين من جهة أخرى، وربما قاد ذلك تلك الثلة من أصحاب العقول الرشيدة إلى قبول الإسلام والدعوة له، وهذا ما حدث بالفعل مع موريس بوكاي الفرنسي، والفونس دينيه وهو فرنسي أيضاً، وليوبلد النمساوي ، الذي وسمى نفسه محمد أسد، وعبد الكريم جرما نونس المجري، وغيرهم كثير.

(٤) الحضارة الإسلامية بأقلام غربية وعربية ص ٤٤ مرجع سابق.

(١) شمس الإسلام تسطع على الغرب ص ٣١٥ مرجع سابق.

ثالثاً: نشر القيم الفاضلة:

تدعو الثقافة الإسلامية إلى نشر القيم الفاضلة في المجتمع، وغرسها في نفوس أتباعه، من خلال التأصيل والدعم لها، حتى تبدو في الواقع كأنها منظومة متشابكة تحكم العلاقة بين أفراد الأمة.

تعريف القيم:

القيم جمع قيمة ويراد بها عند علماء اللغة قدر الشيء، وثمرته، والقيم بمعنى الاستقامة، ومن ذلك قول الله تعالى: (ديناً قيماً) أي ثابتاً مقوماً لأُمُور معاشهم ومعادهم (١)، ويقول الزمخشري: القيمة: ثبات الشيء ودوامه (٢).

والقيم تعنى في الاصطلاح: حكم يصدره الإنسان على شيء ما مهتدياً بمجموعة المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشرع محدداً المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك. (٣)

وعلى هذا الأساس تنقسم القيم إلى حسنة وأخرى سيئة، وهذا التعريف يشير إلى أن القيم والأخلاق مترادفان، لأن السلوك مظهر خارجي للأخلاق وهذا ما أشار إليه كثير من الباحثين.

يقول الدكتور جابر قميحة في تعريفه للقيم بأنها:

مجموعة الأخلاق التي تصنع نسيج الشخصية الإسلامية، وتجعلها متكافلة قادرة على التفاعل الحي مع المجتمع، وعلى التوافق مع أعضائه وعلى العمل من أجل المجتمع والنفس والأسرة والعقيدة. (٤)

والحق أن الأخلاق في الإسلام ليست بالأمر البسيط، بل إنها تتصل اتصالاً وثيقاً بالعقيدة، لأن المسلم عندما يتحلى بالأخلاق الفاضلة، ويتجنب الأخلاق السيئة يدرك أن ذلك جزء رئيس من الإيمان بالله تعالى لا ينفك عنه،

(٢) المفردات: الراغب ص ٤١٧ ط الحلبي ١١٣٨ هـ - ١٩٦١ م والآية ١٦١ من الأنعام.

(٣) أساس البلاغة: الزمخشري ص ٥٢٨ المكتبة العصرية صيدا بيروت ٢٠٠٩ م.

(٤) علم النفس الاجتماعي: حامد زهران ص ١٣٢ القاهرة ط (٤) سنة ١٩٧٧ م.

(٥) المنخل إلى القيم الإسلامية: جابر قميحة ص ٤١ ط دار الكتاب المصري ١٩٨٤ م.

وكلما قوي إيمان العبد كان التزامه بالخلق الحسن أقوى يقول الله تعالى :
(لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ
الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (١)، وعن أبي هريرة أن الرسول

- ﷺ قال: " الإيمان بضعة وستون شعبة، أفضلها قول لا اله إلا الله وأدناها
إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان " (٢)، وفي هذا الهدى
يجعل الرسول - ﷺ - إمطة الأذى عن طريق الناس - وهو من الأخلاق
النبيلة - شعبة من شعب الإيمان، كما بوب أهل العلم الذين صنّفوا في الإيمان
وشعبه وخصاله على كثير من الأخلاق، وعدوها من شعب الإيمان مثل كتاب
البيهقي " شعب الإيمان " بل إن كثيراً من المصنفين في الحديث يوردون تحت
مسمى الإيمان كثيراً من الأخلاق على سبيل التمثيل على أنها من شعب
الإيمان وأجزائه.

وقد كثرت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي تربط الإيمان بحسن
الخلق، من ذلك قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ
الصَّادِقِينَ) (٣)، وقوله جلا وعلا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ
عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ) (٤)، وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا
وَصَابِرُوا) (٥).

ومن الأحاديث النبوية الواردة في هذا الصدد قول الرسول - ﷺ - :
التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء " (٦)، وقول الرسول

(١) سورة البقرة الآية (١٧٦)

(٢) أخرجه مسلم ك الإيمان ب بيان شعب الإيمان ٦٣/١ رقم (٣٥) دار إحياء التراث بيروت.

(٣) سورة التوبة الآية (١١٩)

(٤) سورة الحجرات الآية (١١).

(٥) سورة آل عمران الآية (٢٠٠).

(٦) أخرجه الترمذي ٥١٥/٣ ك البيوع ب ما جاء في التجار وقال الألباني انه ضعيف.

- ﷺ : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه" (١).

إن ثقافة المجتمع عندما تكون قائمة على الفضائل التي تشيع بين أفرادها، فإن ذلك من شأنه أن يرقى به من سلم التقدم، ويدفعه نحو القمة، وتلك هي الخيرية، التي أرادها الله - تعالى - للأمم، وجعل من لوازمها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله - تعالى - يقول الله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (٢).

مما لا شك فيه أن ثقافة كهذه، جعلت الخلاق عنواناً لها، دفعت الآخرين من غير المسلمين سواء أكانوا في مجتمع إسلامي أو كانوا بعيداً عنه إلى النظر إلى الثقافة الإسلامية بعين الإجلال والتقدير، ونتج عن ذلك تعاون بين الثقافات في ضوء القاسم المشترك - وهو الأخلاق - لنشر القيم الإنسانية والدفاع عنها، هذا على المدى القريب.

أما على المدى البعيد فقد كانت الأخلاق وسيلة جليلة القدر في قبول الآخر للإسلام واعتناقه، والدفاع عنه، والشواهد في هذا الصدد لا سبيل إلى حصرها.

ويكفي أن انوه على أن أكبر دولة مسلمة في العصر الحاضر هي إندونيسيا، عرفت الإسلام من خلال سلوك التجار المسلمين، وماسيرة المصلحين وأثرها الفعال في انتشار الإسلام في وسط وجنوب إفريقيا عن أحد بخافية.

(٧) أخرجه مسلم ك الإيمان ب الحد على إكرام الضيف ٦٩/١ رقم (٧٩).

(٦) سورة آل عمران الآية (١١٠).

الخاتمة

ويبدو لي بعد العرض الموجز للدراسة السابقة أن هناك نتائج مهمة منها ما يلي:

أولاً: إن الثقافة الإسلامية تسمو على كل الثقافات لان مصادرها الأصلية، عالية القدر، محفوظة من الحل وهذا بدوره ينعكس على الثقافة نفسها.

ثانياً: لا يمكن للثقافة الإسلامية أن ينحسر دورها أو يخفت نورها طالما أنها تتسم بتلك السمات التي تتسجم مع الإنسان والكون.

ثالثاً: أن التيارات الفكرية التي اصطنعها الغرب لا تستطيع أن تصمد في مواجهة الثقافة الإسلامية، ولا يمكن لهذه الأفكار، مهما فعل أصحابها أن تسيطر على عقول وقلوب المسلمين.

رابعاً: الثقافة الإسلامية لا تذوب في الثقافات الوافدة، بل تحتفظ لنفسها بالقدر الذي منحته لها الشريعة الغراء، وقادرة بإذن الله كما كانت في الماضي على قيادة العالم وتوجيهه الوجهة الصحيحة.

خامساً: ينبغي على المؤسسات الدعوية، والهيئات العلمية أن تبذل جهداً أوفر لإظهار دور الثقافة، ووضعها في المكان اللائق بها.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الكريم وعلى آله وصحبه الطيبين

د/ ياسر محمد عبد اللطيف

كلية الدعوة بالقاهرة

قائمة بأهم المراجع والمصادر

- ١- القرآن الكريم جل من انزله.
- ٢- لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف.
- ٣- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ، وزارة التربية والتعليم.
- ٤- معلمة الإسلام ، أنو الجندي ، دار الصحوة.
- ٥- أضواء على الصحوة الإسلامية ، نادية العمري ، مؤسسة الرسالة.
- ٦- لمحات في الثقافة الإسلامية، عمر عودة ، مؤسسة الرسالة.
- ٧- نحو ثقافة إسلامية أصيلة ، عمر الأشقر ، دار النفائس.
- ٨- الموسوعة الذهبية للعلوم ، فاطمة محجوب ، دار الفكر.
- ٩- أساسيات الثقافة الإسلامية ، عبد الغني الكبيسي ، مكتبة الفلاح.
- ١٠- مختار الصحاح ، أبو بكر الرازي ، المطابع الأميرية.
- ١١- واقعنا المعاصر ، محمد قطب ، دار الشروق.
- ١٢- المقدمة ، ابن خلدون ، دار القلم.
- ١٣- الثقافة الإسلامية ، عبد المنعم النمر ، دار المعارف.
- ١٤- الثقافة الإسلامية ، عزمي طه ، الأردن.
- ١٥- منهج الثقافة الإسلامية ، محب الدين الخطيب ، دار ام القرى.
- ١٦- الثقافة والثقافة الإسلامية، سميح عاطف ، الشركة العالمية.
- ١٧- الرسول المعلم ، عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر بيروت.
- ١٨- كتاب الإيمان، ابن تيمية، المكتب الإسلامي.
- ١٩- اليهود عقائد وتاريخ إجرامي، فاخذ سويد ، دمشق.
- ٢٠- المجمع الملم كما بينه الإسلام ، محمد الهاشمي ، دار البشائر.
- ٢١- الثقافة العربية، يوف القرضاوي ، مكتبة وهبة.
- ٢٢- الأخبار في الثقافة الإسلامية، يوسف يوسف ، دمشق.
- ٢٣- الأديان القديمة ، أبو زهرة ، دار الفكر العربي.
- ٢٤- اليهود واليهودية، عبد الوهاب المسيري ، دار الشرق.

- ٢٥- تاريخ الفكر الفلسفي، محمد على ، دار المعرفة الإسكندرية.
- ٢٦- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد حسين ، مكتبة الآداب.
- ٢٧- الاستشراق والاستعمار، عمر قروح ، بيروت.
- ٢٨- سقوط العلمانية أنور الجندي ، دار الكتاب اللبناني.
- ٢٩- معالم تاريخ الإسلام، أنور الجندي ، دار الاعتصام.
- ٣٠- الحلول المستوردة، يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة.
- ٣١- الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي ، مكتبة وهبة.
- ٣٢- أجنحة المكر الثلاثية، عبد الرحمن حنبلة، دار القلم.
- ٣٣- المستشرقون ، العقيلي ، دار المعارف.
- ٣٤- الاستشراق والمستشرقون، مصطفى السباعي ، المكتب الإسلامي.
- ٣٥- العولمة وخصائص دار الفكر، عابد السفيني ، دار الفضيلة.
- ٣٦- مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، مكتبة ابن تيمية.
- ٣٧- حضارة العرب ، جوستاف كوبون ، مكتبة الأسرة.
- ٣٨- شمس العرب تسطع على الغرب ، دار الجيل.
- ٣٩- مراجع ومصادر أخرى متنوعة.

